عاموس عوز

" سومخي"

قصة للشبيبة عن الحب والمغامرات

رقم التصنيف	:	٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه	:	عاموس عوز، ترجمة جمال عبد السميع الشاذلي
عنوان الكتاب	:	سومخي : قصة للشبيبة عن الحب والمغامرات
الموضوع الرئيسي	:	١-الادآب
		٢- القصة العربية
رقم الايداع	:	(١٩٩٧\٩\١٣٨٣
بيانات النشر	:	عمان : دار الجليل

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الاجازة المتسلسل ١٠٩٩/٩/١٩٩٧

رقم الايداع لدى

مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

١٣٨٣/٩/١٩٩٧

الطبعة الاولى

دار الجليل للنشر ١٩٩٧

والدراسات والابحاث الفلسطينية ـ عمان

تلفون ٦٦٧٦٢٧ فاكس ٦٨٣٦٦٨

" سومخـــــي "

قصة للشبيبة عن الحب والمغامرات

ترجمة : جمال عبد السميع الشاذلي

مدرس مساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة

مراجعة : محمود كيال

بالتعاون مع المعهد لترجمة الادب العبري



اصدار

دار الجليل للنشر

والدراسات والابحاث الفلسطينية

عمان - ص.ب ٨٩٧٢ تلفون ٦٦٧٦٢٧ - ٦٧٥٦٢٧

تلكس ٢٣٠٣١٠ - فاكسميلي ٦٨٣٦٦٨

עמוס עוז
סומכי
סיפור לבני נוער על אהבה והרפתקאות

מתרגם : גמאל עבד אל-סמיע אלשאדלי
עריכה לשונית : מחמוד כיאל
בסיוע :המכון לתרגום ספרות עברית

Amos Oz
Soumchi

تقديم:

بعيدا عن مسألة التطبيع، التي تعتبر موضوعا خلافيا في الاوساط العربية، فان حالة النزاع العربي - الاسرائيلي ، كانت، وما زالت، تستلزم منا، نحن العرب، التعرف على مختلف مناحي الحياة الاسرائيلية، بحيث نذخر خلفية تفيد في اسلوب التعامل الآني والمستقبلي، لا فرق في ذلك بين حالتي السلم والحرب.

اما وقد اصبح السلام، رغم معوقاته، سيد الموقف، فان الحاجة تغدو اكثر الحاحا، للدخول الى المجتمع الاسرائيلي، من كل الابواب، خاصة وان الافكار التي كانت سائدة، منذ زمن، لم تعد صالحة للتداول، لانها اما كانت مغلوطة، او انها نتاج زخم اعلامي معين.

وفي القلب من كل هذا، يقع الادب العبري، الذي يشكل الرأس التربوي الاسرائيلي، ونافذة اليهود على ثقافات العالم المتحضر، وعلى الرغم من ان هذا الادب، قد يكون لصيقا للحالة اليهودية المعروفة، وربما يكون مسيسا في كثير من الاحوال، بيد انه جدير بالقراءة، بحيث نغوص في اعماق الفكر الادبي العبري من جهة، ونستفيد من السمين فيه" ان وجد"، بحيث يكون متساوقا مع الهوية والدين والعرف.

لقد دأبت اسرائيل، ممثلة بوسائل اعلامها، على متابعة ادبائنا وشعرائنا ومثقفينا، وترجمت عددا من كتبنا لاهداف معروفة، ونحن اذ نتعامل مع اسرائيل بالمثل، انما نفعل ذلك لاطلاع القاريء العربي، على الفكر اليهودي، ونحسب ان الناس قد اصبحوا من القدرة، بحيث يستطيعون فرز الغث، وربما التعرف على الافكار المبرمجة، او المتطرفة وفي ذلك فائدة ايما فائدة.

دار الجليل

مقدمة عن التبادلات

وتأتي في المقدمة افكار مختلفة وذكريات ومقارنات واستنتاجات، لكن من الممكن ان نتجاهل كل هذا وننتقل مباشرة الى الفصل الاول الذي تبدأ معه القصة فعلا.

الكل يتبدل. اغلب معارفي واصدقائي، مثلا، يبدلون شقة قديمة بشقة جديدة ويتبادل هذا مع ذاك تحية "صباح الخير". ويبدلون الاسهم بالاوراق المالية. او العكس ويبدلون الدراجة بدراجة نارية ويبدلون الدراجة النارية بالسيارة. ويتبادلون الطوابع والعملات. ويبدلون الستائر والمهنة. ويتبادلون الخطابات والاراء والافكار. وهناك من يتبادل الابتسامة.

في حي "شعاري حاسيد" كان يقطن احد بائعي التذاكر. بدّل بيته وزوجته خلال شهر وبدّل منظر وجهه (اذ اطلق شاربا احمر مع سوالف طويلة ضاربة الى الحمرة ايضا) وبدّل اسمه الشخصي وبدّل اسم اسرته وبدّل مشيته وطعامه ونومه: باختصار بدّل كل شيء. وفي يوم صاف تحول بائع التذاكر الى قارع طبل في ناد ليلي. (لكن حقيقة، لم يكن هذا الحدث تبديلا وانما كما لو كنا نقلب جوربا من الداخل الى الخارج بأن ندخل يدنا بداخله ونقلبه: لقد كانت هذه الحادثة انقلابا ولم تكن تبديلا.) وبالمناسبة بينما نحن نتحدث ونتفلسف فان العالم من حولنا يتبدل: فالصيف يكون ازرق وجليا على الارض كلها والجو حار والسماء ملتهبة

من فوقنا لكن من الممكن ان نشعر قبل المساء ببرودة جديدة. وفي الليل تأتي الريح وتجلب معها رائحة الغيوم. وها هي الاوراق تبدأ في الاحمرار او الاسمرار ببطء، ويبدو البحر اكثر زرقة مما كان وتبدو الارض بنية لدرجة كبيرة وحتى الجبال البعيدة تبدو اكثر بعدا. من كل شيء.

انني عندما كنت في الحادية عشرة وبضعة شهور تقريبا تبدلت اربع او خمس مرات في يوم واحد. ومن الممكن ان نبدأ القصة بالخال "تسمح" او نبدأ "باستي" وسابدأ "باستي".

الفصل الاول
هكذا ازدهر الحب

ويظهر في نهاية هذا الفصل بعض الامور الخاصة التي حفظت حتى اليوم على أنها من الأسرار منها الحب ومشاعر اخرى.

لقد كانت بجوارنا في شارع زكريا فتاة تدعى "آستي" احببتها وكنت اقول لنفسي في همس في الصباح اثناء تناول وجبة الافطار وقطعة الخبز في فمي: أستي، وكان والدي يرد على هذا بقوله:

"يجب الا تمضغ بفم مفتوح"

وقالوا عني في المساء:

"الولد المجنون عاد مرة ثانية واغلق الحمام على نفسه وهو يلعب بالماء". لكنني لم اكن العب بالماء". لكنني كنت املأ الحوض بالماء وكنت ادون اسمها باصبعي على وجه الامواج. احيانا كنت احلم في الليل بأن استي تشير إليّ باصبعها وانا في الشارع وتصرخ "لص"! "لص"! اما انا فاصاب بالذهول وابدأ في الهروب وهي تطاردني والجميع يطاردونني "بركوخبا سوخويلسقي" و "جوئيل جرمنسقي" و"الدو وايلي فينجرطن" واستمرت المطاردة عبر الملاعب والفناءات والاسوار والخردوات والخرائب والازقة، وتعب كل من كان يلهث ورائي وبدأوا يتأخرون ويتخلفون. ولم يبق خلفي الا "أستي" التي تركض دون كلل. وفي النهاية اصبحنا بمفردنا نجري حتى وصلنا الى مكان ناءٍ ربما كان مخزن اخشاب. او حجرة غسيل على السقف. أو مثلث مظلم تحت سلم بيت غريب. وعندئذ

اصبح الحلم جميلا ومخيفا. ومن كثرة الخجل نستيقظ ونكاد نبكي قليلا بالليل. لقد كتبت قصيدتيّ شعر عن الحب في مفكرتي السوداء التي فقدتها في غابة" "تل ارزة" ولعله من المستحسن انني فقدتها.

وماذا عرفت "أستي"؟

ان أستي لم تعرف شيئا. وربما عرفت واندهشت.

فمثلا: ذات مرة رفعت اصبعي في درس معالم البلاد وعندما سمح لي بالحديث قلت بحزم كبير:

"أن بحيرة الحولة تسمى ايضا باسم سومخي".

وبالطبع قهقه كل الفصل قهقهة مدوية وحقيرة. ان ما قلته كان الحقيقة بل الحقيقة ذاتها وحسب ما ذكرته الموسوعة. ومع ذلك فقد اضطرب مدرسنا الذي يدعى "شطريت" للحظة وناقشني بغضب:

"من اين اتيت بهذه الكلمة وعلى اي اساس قلتها؟"

واهتاج الفصل وماج وصرخوا من كل جانب:

"انها سومخي حسب رأي سومخي".

فاحتقن السيد "شطريت" واحمر وجهه وصاح كعادته:

"هدوء يا بشر!"

وأيضاً"لا يطوّل احد لسانه"

وبعد مرور خمس دقائق عاد الهدوء الى الفصل لكنني بقيت باسم سومخي حتى السنة الثامنة.

لقد رويت كل هذا هنا دون اي هدف جانبي لكنني قصدت بذلك ان اشير الى شيء واحد مهم هو ان البطاقة التي ارسلتها لي "أستى" في نهاية نفس درس

معالم البلاد كان مكتوب عليها:
"أيها المجنون، لماذا تقول دائما اشياء تسبب لك مشاكل؟ كفى! "
وفي اسفل البطاقة كتبت باحرف صغيرة جدا:
"لكن لا عليك. "أ""
ماذا عرفت "أستي" اذن؟
ان أستي لم تعرف شيئا وربما عرفت واندهشت.

انني لم تراودني فكرة اخفاء خطاب حب في داخل حقيبتها مثلما فعل "ايلي فيجرطن" لـ "نوريت" ولم افكر ان ارسل اليها "رعنانة" الدلالة كما ارسل "طرزان بمبرجر" ايضا الى "نوريت".

بالعكس انني كنت في كل مناسبة اجذب "أستي" من ضفائرها وكنت الصق على الكرسي علكة.

ولم ذلك اذن؟
لا لشيء. ولم لا. لتعرف.

وكنت اثني كلتا يديها النحيلتين بكل قوتي تقريبا خلف ظهرها حتى تشتمني وتجرحني بأظافرها، ولم تتوسل الي في أية مرة. هكذا فعلت "بأستي" بل فعلت اسوأ من هذا: انني الذي اوجدت لها لقب "كلمنطين" (لقد كانت هناك اغنية انجليزية في القدس في تلك الايام، اغنية جنود انجليز من معسكر "شنلر" "هو ماي دارلينج هو ماي دارلينج- "كلمنطين"). (اواه يا محبوبتي، اواه يا محبوبتي، كلمنطين) .

وبعد مرور نصف عام تحمست البنات عندنا بالذات بعد ان تغير كل شيء فكانوا ما زالوا ينادون "أستي" في عيد الحانوكا(١) باسم "تينا" وهو

مشتق من "كلمنطينة" المشتق من "كلمنطين" الذي اطلقته عليها.

وأستي؟

لقد وجدت من اجلي كلمة واحدة فقط وكانت تطلقها عليّ في الصباح وكانت هي اول شيء اسمعه في الصباح حتى قبل ان ابدأ بمضايقتها:

"مقرف".

او:

"شخص مقرف"

لقد آلمت "أستي" مرتين او ثلاث مرات في استراحة الساعة العاشرة حتى ذرفت الدموع. وبسبب ذلك عاقبتني معلمتنا وتدعى "حمده" بعقاب ارتضيته كرجل دون ان اتحدث. وهكذا نما الحب دون اي احداث خاصة حتى غداة عيد الاسابيع(٢). اذ كانت "استي" تبكي بسببي في استراحة الساعة العاشرة وانا ابكي بسببها ليلا.

---

* (١) عيد الحانوكا: هو عيد له طبيعة سياسية وصهيونية وتاريخية ومناسبة هذا العيد ترجع الى سنة ١٦٥ ق.م اذ حاول اليونان ارغام اليهود على الدخول في دينهم الوثني وترك اليهودية لكن الكاهن الاكبر اعلن المقاومة وعاونه في ذلك احد ابنائه واسمه يهوذا المكابي ونجح في انتزاع المعبد اليهودي من الجيوش اليونانية.

انظر: د. حسن ظاظا: الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه، مكتبة سعيد رأفت القاهرة ١٩٧٥، ص ٢٠٥.

(٢) عيد الاسابيع: وهذا العيد هو عيد الحصاد فكان الفلاحون اليهود يأخذون اول ثمار الحصاد الى الهيكل وقد بعث هذا التقليد في اسرائيل حيث يأخذ اعضاء مزارع الكيبوتس (مزرعة عامة) والموشاف (مزرعة خاصة) باكورة انتاج الارض ويقدمونه لا الى الهيكل وانما الى الصندوق القومي اليهودي وهذا العيد له مناسبة تاريخية وهي نزول التوراة والوصايا العشر على موسى فوق جبل سيناء.

د. عبد الوهاب محمد المسيري: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ١٩٧٥ ص ٢٧٥.

الفصل الثاني
انسان عظيم وواسع الافق

لقد تخطى الخال "تسيمح" كل الحدود اما انا فقد خرجت في رحلة الى روافد نهر "زامبيز" (في قارة افريقيا).

لقد وصل الخال تسيمح في عيد الاسابيع من تل ابيب واحضر لي دراجة كهدية. لقد كان يوم ولادتي بين عيد الفصح(١) وعيد الشعلة(٢). لكن من وجهة نظر الخال "تسيمح"(فان كل الاعياد متساوية تقريبا الا عيد الخامس

عشر من شباط العبري (عيد الشجرة) الذي كان يوليه احتراما خاصا إذ كان يقول: "ان اولاد اسرائيل يتعلمون في الفصل السخط على اليونان الظالمين في عيد الحانوكا والسخط على الفرس في عيد البوريم(٣) والسخط على المصريين في عيد الفصح. في عيد الشعلة السخط على الرومان. والاول من مايو هو يوم المظاهرات ضد انجلترا وفي التاسع من آب العبري نصوم ضد بابل وروما وفي

---

(١) عيد الفصح: يحتفل في هذا العيد بذكرى نجاة بني اسرائيل من العبودية في مصر ورحيلهم عنها كما يحتفل في الوقت ذاته بمجيء الربيع. نفس المرجع السابق ص ٢٧٦.

(٢) عيد الشعلة: يوم عيد لدى اليهود الدينيين وهو اليوم الثالث والثلاثين من بدء احصاء العومر فور عيد الفصح ويقع في يوم ٦ آيار العبري، وهو حسب التقاليد يوم انتصار بركوخبا على الرومان كما انه عيد ديني ومهرجان احياء لذكرى الحاخام شمعون باريوحاي، ففي هذا اليوم يقطع الحزن فيمكن حلاقة الرأس والذقن واجراء طقوس الزواج. انظر : دافيد سغيف، قاموس عبري عربي ، الجزء الثالث ص ١٣٤٣.

(٣) عيد البوريم: يحتفل به بمناسبة انقاذ استير يهود فارس من المؤامرة. التي دبرت لذبحهم. انظر: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص ٢٧٧.

العشرين من شهر تموز العبري مات هرتزل وبياليك وفي الحادي عشر من اذار العبري نذكر دائما ما سببه العرب لـ "طرومبلدور"(٤). واصدقائه في "تل حي". لكننا في الخامس عشر من شباط العبري لم نتنازع مع احد ولم يكن لدينا اية مشاكل ولكن بالذات في الخامس عشر من شباط العبري ومن اجل اثارة السخط يسقط المطر دائما.

لقد كان الخال تسيمح، هكذا شرحوا لي، هو الابن البكر للجدة "اميليا" وكان ابنها من الزوج الاول قبل ان تتزوج من الجد "ايزيدور".

الخال تسيمح احياناً عندما ينزل ضيفا علينا يوقظني من النوم في الخامسة والنصف صباحاً ويحرضني في صمت لكي أتسلل الى المطبخ لكي نعد بيضتين سراً، في ساعات الصباح تلك كان يتوقد في عينيه وهج مرح، شبه فاسق، وكان يتصرف وكأننا انا وهو ننتمي الى عصابة خطيرة من المحتالين، وأننا نكتفي حاليا بحيل بريئة نسبياً كقلي بيضتين سراً.

وإجمالاً كان هناك رأي سلبي جداً متداول في أسرتنا عن الخال تسيمح فكانوا يقولون مثلاً:

"عندما كان في الرابعة عشرة من عمره كان كان سمساراً صغيراً في وارسو في شارع " نالباقي" وهو الان سمسار في شارع" بوجراشوف" في تل ابيب ولم يتغير اطلاقا بل انه لم يقم حتى بالتسفع باشعة الشمس . إنه غريب

---

(٤) يوسف طرومبلدور، ولد عام ١٨٨٠ في روسيا وهاجر الى فلسطين في عام ١٩١٣ وقتل عام ١٩٢٠ في معركة ضد العرب الفلسطينيين الذين هاجموا قرية تل - حي.

الاطوار ولا يمكن عمل اي شيء معه".

اما أنا فمن وجهة نظري كانت هذه الملاحظة الاخيرة ملاحظة ساخرة وحمقاء وقبيحة وغير منصفة: ان الخال تسيمح لم يتسفع لانه لا يستطيع التسفع وهذا كل ما في الامر. حتى لو عينوه كمنقذ على شاطىء البحر لما استطاع التسفع. وانما كان سيحمر ثم يسلق وبعدها يتقشر جلده تماما. لقد كان شابا ابيض ونحيفا وقصيرا كما لو كان مقصوصا من ورقة وله شعر ابيض وعينا ارنب حمراوان.

لكن ما معنى لفظ "سمسار" انني لم افهم معناها في تلك الايام ترجمتها في نفسي كالتالي: لقد كان الخال تسيمح متعودا على ان يرتدي قميصا داخلياً وبنطلوناً كاكياً يصل الى ركبتيه وينام امام الراديو الذي تنبعث منه الموسيقى وهو لا يزال في مدينة وارسو. إنه لم يتغير الى الاحسن بل استمر في هذا التصرف الغريب في أن ينام أمام الراديو الذي تنبعث منه الموسيق ويرتدي قميصاً داخلياً وبنطلوناً كاكيا هنا ايضا في تل ابيب في شارع بوجراشوف. ففكرت في نفسي، اذن، ماذا في ذلك. بل لقد كان الخال تسيمح يقطن في شارع "جروزنبرج" وليس في شارع "برجراشوف".

وعدا عن ذلك كان يرفع صوته فجأة بالغناء بمشاعر فياضة وبصوت متهدج: "الطريق تبدو لي بعيدة جدا. الدرب ملتو وهارب...".

وبسبب ذلك تحدثوا عندنا بالايديش، لكي لا افهم، حديثا هامسا وقلقا برزت في نهايته كلمة "مشيجنر" وتعني مجنون. هذا على الرغم من ان الخال تسيمح عندما علا صوته مغنيا هذه الاغنية او تلك لم يبد لي ابدا كرجل مجنون بل بدا كرجل حزين. واحيانا لا يكون حزينا اطلاقا بل على

العكس يبدو سعيدا ومرحا جدا.

فمثلا كان يجلس مع والدي والعمة العزباء "عدنا" في شرفة منزلنا قبل المساء. ويتحدث في موضوعات يجب الا تذكر امام الاطفال، مثل الصفقات والارباح وعن قطع الاراضي وعن الحيل وعن الاوراق والقطع النقدية وعن الفضائح والخيانات في الاوساط الفنية، وكان يتحدث احيانا بفظاظة حتى يسكتوه بصوت مدوٍ: "صه، يا تسيمح، ماذا بك! هل جننت تماما؟ ان الولد يجلس ويسمع كل شيء، انه لم يعد طفلا". أما بالنسبة للهدايا التي كان يحضرها لي:

كان الخال تسيمح يحضر لي هدايا مدهشة بل وتهيج الفؤاد. وذات مرة احضر لي البوم طوابع صينياً يغرد عندما يفتحونه، وفي مرة اخرى احضر لي لعبة مشابهة للعبة "الاحتكار" ولكن باللغة التركية. وفي مرة اخرى احضر ليس مسدسا اسود كان يرسل المياه في وجه العدو. وفي مرة اخرى احضر لي حوض اسماك صغير به زوجان من الاسماك لكنهما لم يكونا زوجين كما اتضح بعد ذلك بل كانا ذكرين ممتازين. وفي مرة اخرى احضر لي بندقية سهام. (هل جننت يا تسيمح؟ اليس وجود هذه البندقية مع الولد قد يتسبب -لا قدر الله- في نقر عين اي شخص). وفي احد ايام السبت الشتوية حصلت من الخال تسيمح على عملة نقدية نازية لم يوجد مثلها مع اي طفل من حينا. ("لكن في الحقيقة لقد تخطيت يا تسيمح كل الحدود!") واحضر لي في ليلة حفلة عيد الفصح ستة فئران بيضاء في قفص (وماذا ستعطي للولد ايضا؟ ثعابين وبق؟ وربما تحضر له الصراصير)، وفي هذه المرة احتفالا بعيد الاسابيع ركب العم تسيمح من محطة (ايجد) التي في شارع يافا حتى فناء منزلنا على دراجة

مستعملة من انتاج " رالي" وملحق بها كل شيء، كان بها جرس وفانوس وكان بها "حمال" وكان بها عاكس للنور من الخلف لكن ما نسميه "جسرا" كان غير موجود بها وهو العمود الذي يربط الكرسي بمقدمة الدراجة.

ومن فرط سعادتي لم ادرك خطورة هذا النقص من اللحظة الاولى.

قالت امي:

"لقد بالغت بعض الشيء هذه المرة يا تسيمح. فالولد في الحادية عشرة من عمّره فقط، فماذا ستحضر له اذن عندما يبلغ الثالثة عشرة من عمره؟"

رد الخال تسيمح في الحال وبعدم اكتراث واضح كما لو كان قد استعد مسبقا لهذا السؤال. " جمل ".

قال ابي:

"لعله من المستحسن ان تفكر ذات مرة في النتائج التربوية بجدية يا تسيمح، والى اين يؤدي كل هذا؟" لم انتظر الاجابة ولم يكن مهما بالنسبة لي ان اعرف الى اين يؤدي كل هذا.

ومن فرط سعادتي وفخري اسرعت الى المكان الخاص بي الكائن خلف المنزل. وانا ادفع دراجتي بسرعة. وهناك دون ان يراني احد قبلت مقدمة الدراجة وقبلت ظهر يدي عدة مرات وصرخت في همس:

"الرب الهنا، الرب الهنا، الرب الهنا".

وبعد ذلك اندلعت تنهدات قوية من اعماق الصدر.

"هي.. ما... لا... يا!".

وبعد ذلك اسندت الدراجة على شجرة وقفزت عاليا في الهواء. وعندما هدأت قليلا رأيت ابي.

فقد وقف عاليا في الشباك ونظر الي في صمت حتى انهيت كل اعمالي.

وقال ابي بعد فترة من الصمت.

"تمام. كما تريد. ولكنني اطلب منك امرا واحدا فقط وهو ان نبرم الان اتفاقا صغيرا بيننا، وهو ان تركب على دراجتك الجديدة لمدة ساعة ونصف الساعة كل يوم وليس اكثر من ذلك وتركب دائما في الجانب الايمن من الطريق حتى لو لم تكن هناك حركة سير في الشارع، وتبقى انت دائما في اطار شوارع "ملآخي" و"تسفينيا" "زكريا"، "عوبديا"، "عاموس"، ولكن يجب الا تسير في شارع "جئولة" اذ يسرع السائقون البريطانيون من معسكر "شنلر" وهم احيانا كثيرة سكارى او مجرد كارهين لليهود او الحالتين معا. وفي مفترقات الطرق ارجوك ان تستعمل عقلك قليلا من فضلك".

قال الخال تسيمح:

"على اجنحة النسور!"

وقالت امي:

"نعم ولكن بحذر."

أما أنا فقلت:

"حسناً. سلام"

وبعد ذلك وعندما ابتعدت عنهم قليلا اضفت:

"سيكون على ما يرام!"

وخرجت للشارع. ويا للعجب كيف نظر الي كل اولاد الجيران وزملائي في الفصل والصغار والكبار! نظرت اليهم انا ايضا خلسة. كي لا يلاحظوا ذلك ورأيت الغيرة والسخرية والشرّ.

لا يهمني.
ومررت من امامهم ببطء. كما لو كنت في مسيرة، ولم اركب على دراجتي لكنني دفعتها بيد واحدة وباعتدال كبير على طول الرصيف، وبالقرب من الاولاد وارتسمت على وجهي تعابير تفكير وتباهٍ وكأنني اقول: "لا شيء خاص. دراجة رالي. وانتم بالطبع مسموح لكم ان تنفجروا في هذه اللحظة وافعلوا هذا من فضلكم وعلى مسئوليتكم الكاملة لان هذا شيء لا يعنيني". وفعلا فان "فينجرطن" لم يستطع ان يصمت اكثر من هذا وبدأ الحديث ببرود علميّ كما لو كان قد اكتشف فجأة سحلية غريبة في المنطقة:
"انظروا ماذا هناك. لقد اشتروا لسومخي دراجة فتيات بدون جسر". "سيشترون له فيما بعد فستان السبت ايضاً" قال بروكوخبا سوخوبلسقي، ولم يكلف نفسه حتى بالنظر الي، ولم يتوقف عن قذف قطعتين نقديتين في الهواء والتقاطهما بخفة بالغة في آن واحد.
"ان شعر سومخي يحتاج الى شريط وردي يناسبه!" (وكان هذا صوت طرزان بمبرجر) .
"هو و"أستي" سيكونان خير صديقتين "(باركوخبا مرة ثانية) "لكن آستي اصبحت ترتدي صدرية ولسومخي لا يوجد بعد" (ايلي فينجرطن الحقير).
وقررت في هذه اللحظة: كفى: هذا يكفي، لقد زاد الامر عن حده. وبدلا من ان اشتمهم او اهشم عظامهم واحدا تلو الاخر قمت بحركة فظة اتجاههم باصبع يدي اليسرى(كما فعل الخال تسيمح عندما ذكروا اسم وزير الخارجية البريطاني بويان) وانسحبت من هناك بسرعة راكبا على دراجتي ومتجها ناحية شارع "تسفنيا".

فليتحدثوا .

فلينفجروا .

أنا لا يهمني.

وعدا عن ذلك فان من مبادئي الا اتصارع مع اولاد اضعف مني والاهم من هذا لماذا ذكروا استى. من هي استى التي يقصدونها؟ وعموما؛ انني سأتجه اليوم من هنا على دراجتي الجديدة ناحية الجنوب عبر "قطمون"، و"تلبيوت" وعبر بيت لحم والخليل وبئر السبع والنقب وصحارى سيناء الى قلب افريقيا الى منابع نهر "زامبيز" وحيدا وشجاعا بين اولاد كثيرين عطشى للدم.

ولكنني وانا في الطريق وبالتحديد في نهاية شارع تسفنيا. سألت نفسي: لماذا يكرهني هؤلاء السفلة كل هذا الكره. وفجأة انتابني شعور داخلي بأنني مذنب ايضا ولو الى حد ما.

وفي هذه اللحظة شعرت بالراحة، فمن يستطيع ان يشفق حتى ولو على اكبر مبغضيه يكون هذا دليلا على ان نفسه كبيرة. ولن توجد قوة او عائق في العالم يقف امام هذا الانسان في رغبته في الكشف عن مناطق مجهولة.

وقررت ان ادخل الان لزيارة "الدو" لاتشاور معه ومن هناك سأواصل السير اليوم بدون تأخير في طريقي الى افريقيا.

الفصل الثالث
من سيصعد جبل الرب ؟

سيروى فيه عن مباحثات وتوقيع اتفاقية وعن مشروعات ضخمة
وعن اماكن منعزلة لم تطأها قدم الانسان الابيض بعـــــــد.

في اقصى شارع تسفنيا وبالتحديد في المنزل قبل الاخير كان يسكن صديقي "الدو قسطلناوبو". وكان والده ساحراً معروفاً بالكبريت والكوتشينة وكان صاحب وكالة السفر الكبرى التي تسمى "اورينت اكسبريس". لقد عرفت ان "الدو" في حاجة لرؤية دراجتي الجديدة، وذلك لان والديه اشتريا له كل شيء الا الدراجة، فلم يسمحوا له بركوب الدراجة بسبب اخطارها المختلفة كما ان ركوبه الدراجة سيعوق تقدمه في العزف على الكمان.

اذن، صفرت "لالدو" من الخارج سرا وخرج الي وبلمح البصر فهم كل شيء فاسرع بادخال الدراجة خلسة الى مخزن القرميد المهجور الموجود في فنائهم، دون ان تشك والدته في اي حركة مشبوهة.

بعد ذلك دخلنا البيت واغلقنا حجرة مكتبة والد "الدو" الاستاذ "اميليو قسطلناوبو" (الذي سافر الى القاهرة لمدة اربعة ايام بخصوص اعماله) وكالعادة انتشرت في حجرة المكتبة رائحة غامضة وجذابة، رائحة الاسرار والسجاجيد الهادئة والمؤامرات والاغطية الجلدية والهمسات والرحلات. وكانت اباجورات المكتبة مغلقة طيلة اليوم بل وطيلة الصيف لان اشعة الشمس قد تفسد دفات الكتب الجلدية الجميلة والاحرف الذهبية الموجودة عليها.

واحضرنا الاطلس الاجنبي الضخم وقارنا بحذر بين طرق مختلفة على خريطة افريقيا. وقامت والدة "الدو" بارسال صينية مع المربية الارمينية "لويزا"، وكان عليها فستق ولوز وجوز وبذور مكسرات وكؤوس مملوءة بالعصير وكانت الكؤوس زرقاء ورفيعة وترشح ماء من شدة البرودة.

وعندما اكلنا اللوز والجوز ووصلنا الى البذور دار بيننا حوار حول الدراجات بصفة عامة ودراجتي بصفة خاصة. فلو كان لدى "الدو" دراجة سرية لكان من الممكن ان يخفيها بعيدا عن اية عين مراقبة في داخل مخزن القرميد المهجور، وفي الصباح الباكر من كل يوم سبت حينما يكون والداه ما زالا نائمين يستطيع الدو ان يخرج بالدراجة ويركب بلا ازعاج الى نهاية العالم. لقد ابديت آراء تدل على خبرة في شؤون الاطارات والاسياخ، والدواسات على اختلاف انواعها والبطاريات مقارنة بالدينامو وفرامل اليد (التي اذا استعملها أحد في السير بسرعة فانه ينقلب في الحال) مقارنة بفرامل الرجل (التي ان افلتت في منتصف المنحدر فانت مفقود لا محالة ومن الممكن في هذه الحالة ان تقول "اسمع يا اسرائيل")(١) وعن الحمال العادي مقارنة بالحمال ذي النوابض وعن الفوانيس وعن المصباح العاكس واشياء اخرى كثيرة. وبعد ذلك عدنا الى ابناء زولو والى "الهوطنطوطين" والى "البوشمانين" والى الصفات المشتركة بين هذه القبائل وما هي الصفة الخاصة بكل قبيلة من هذه القبائل ومن منهم اخطر من الثانية. لقد تحدثت بحماس عن المهدي المخيف في مدينة

* (١) اسمع يا إسرائيل ان الله الهنا آله واحد (التثنية ٦،٤) آية التوحيد التي يرددها اليهودي في صلواته وفي ساعات الشدة والضيق (انظر: سجيف، قاموس عبري عربي).

الخرطوم عاصمة السودان وعن طرزان الحقيقي في غابات تنغانيكا، الى حيث سأتوجه في طريقي الى منابع نهر زامبيز الموجودة في "اويانجى - شارى". (جمهورية افريقيا الوسطى). لكن "الدو" لم يعد يصغي لي فقد كان مشتت الذهن وكان يفكر في شيء ما كما كان يبدو عصيبا اكثر واكثر من لحظة لاخرى. وفجأة قاطعني وقال بصوت رفيع مرتعش من فرط الانفعال: "هيا نذهب الى حجرتي وسترى شيئا ما لم تره حتى في احلامك." وطلبت منه قائلا: "ولكن بسرعة لانني مضطر لان استمر في رحلتي هذا اليوم". وعلى الرغم من هذا ذهبت وراءه، وفي طريقنا عبرنا المنزل على طوله تقريبا، لقد كان منزل اسرة قسطلناوبو واسعا حدا ومليئا بالسجاجيد والستائر ونظيفا ولكن معتما بعض الشيء، وعلى النمط الاجنبي. فمثلا في حجرة الضيوف كانت توجد ساعة حائط بنية ذات عقارب ذهبية واحرف عبرية مربعة تدل على الارقام بدلا من الاعداد نفسها. وكانت هناك دواليب منخفضة تمتد على طول الحائط وعليها صفوف من ادوات قديمة من الخشب والفضة الخالصة بل وكان لديهم تمساح مصنوع من الفضة وقد استخدم ذنبه كرافعة بحيث انه بجذب الذنب وبالضغط البسيط تجد ان اسنان التمساح تفلق الجوز تكريما لضيوف اسرة "قسطلناوبو". وفي باب الممر الواصل بين حجرة الضيوف وبين حجرة الطعام الطويلة كان يربض غاضبا ليلا ونهارا "تسيزاريو" وهو كلب مصنوع من الصوف مليء باعشاب البحر ينظر اليك بأزرار سوداء بدلا من العينين.

وفي حجرة الطعام نفسها هنالك منضدة ضخمة ذات لون بني واحمر وقد البسوا ارجلها السميكة ما يشبه جوربا من اللباد. وقد كتب على حائط حجرة الطعام بأحرف ذهبية العبارة التالية "من يصعد إلى جبل الرب ومن

يقوم في موضع قدسه ." (١).

وكانت الاجابة على هذا السؤال هي شعار الاسرة. وقد نقشت على الحائط المقابل بدائرة من الكلمات احاطت رمز عائلة "قسطلناوبو" وهو ظبي ازرق يحمل على قرنيه نجمتي داود. وقد كتبت هذه العبارة "الطاهر اليدين والنقي القلب" وفي حجرة الطعام كان هنالك باب زجاجي يؤدي الى حجرة صغيرة تسمى "حجرة التدخين"، وبها حائط مغطى بكامله بصورة ضخمة لامرأة ترتدي فستانا مصنوعا من نسيج كتاني رقيق فاخر ومنديل حريري يخفي اغلب وجهها ما عدا عينيها السوداوين، ويدها البيضاء تمتد بعملة ذهبية صوب لفافة متسول وكانت العملة تلمع في الصورة وانبعثت منها تلألآت صغيرة في كل اتجاه كما لو كانت شررا من نار، وقد جلس المتسول مستريحا في زاوية الصورة يرتدي عباءة بيضاء نظيفة، لحيته بيضاء ايضاً وعيناه مغلقتان ووجهه مشرق، وكان تحت الصورة تفسير بسيط محفور على لوحة نحاسية صغيرة:" احسان". ما اكثر الاشياء التي اثارت دهشتي في هذا المنزل! فمثلا "لويزا" المربية الارمنية التي تهتم بالدو وكانت فتاة سمراء تبلغ من العمر ستة عشر او سبعة عشر عاما و كانت مهذبة الى اقصى الحدود. وكانت ترتدي دائما مريولا ابيض على فستانها الازرق. وكلاهما اي الفستان والمريول يبدوان كما لو كانا قد كويا في هذه اللحظة. لقد عرفت كيف تتحدث مع "الدو" باللغة الايطالية، ومع ذلك تطيع كل اوامر "الدو" بلا شروط وكانت تتصرف معي ايضا بلباقة وتناديني بلقب "سيدي الصغير" بعبرية غريبة شبه

---

* (١) استعمل عوز عبارة وردت في المزامير ٣:٢٤

حالمة لدرجة انني بدوت في نظري كسيد صغير فعلا. فهل هي بنت المرأة المرسومة في الصورة الكبيرة الموجودة في حجرة التدخين؟ واذا لم تكن ابنتها فكيف يمكن تفسير الشبه الموجود بينهما. وكلمة "صدقا" (احسان) هل هي اسم الصورة؟ ام اسم المرأة التي في الصورة؟ وربما كان اسم الرسامة التي رسمتها؟ لاننا عندما كنا ندرس في السنة الثانية كانت لدينا مدرسة باسم "مرجليت صدقا" وهي التي حددت "الدو" الاسم العبري "الداد" لكن من سينادي باسم الداد على طفل يوجد في منزل والديه حجرة تدخين خاصة؟

(شقتنا تتكون من حجرتين ومطبخ وطرقه صغيرة وفيها مناضد خشبية بسيطة مع كراسٍ من القش المجدول. وفي الربيع تزهر لدينا شقائق النعمان او افرع اللوز في مرطبانات اللبن. اما في الصيف والخريف فتنمو لدينا افرع الآس في نفس المرطبانات. ويظهر في الصورة التي في الحجرة الكبيرة طلائعي يحمل معولا ويتجه لسبب ما ناحية اشجار السرو الخضراء).

في الجانب الاخر لحجرة التدخين يوجد باب ضيق ومنخفض مررنا منه. ونزلنا خمس درجات الى الجناح الذي توجد به حجرة "الدو". عبر نافذة حجرته ظهر كثير من سطوح القرميد الحمراء وحي "مئه شعاريم".

اما ناحية الشرق فتبدو من بعيد الجبال والابراج المسيحية، قال "الدو" كمن سيقوم بعمل سحري:" انظر الان"، وخلال حديثه هذا انحنى وتناول من داخل صندوق كبير ومزين اجزاء من سكة حديدية يمكن تركيبها وبعض محطات صغيرة للقطار وانسان معدني يوجه حركة القطارات وبعد ذلك ظهرت القاطرات الزرقاء المدهشة وخلفها كثير من العربات الحمراء، اما انا و "الدو"

فقد اضطجعنا على الارض وبدأنا في تركيب كل شيء القضبان واجهزة الاشارات والطبيعة (التي صنعت هي ايضا من المعدن ولونت بعدة الوان بما فيها من جبال وجسور وانفاق وبحيرات، حتى الابقار الصغيرة كانت مرسومة على منحدرات الجبال وهي ترعى بهدوء على جانبي السكة المنحدرة).

وفي نهاية الامر اوصل "الدو" المقبس الكهربائي وفي غمضة عين بدأ عالم السحر الموجود على الارضية في الحياة واللهاث من خلال صفير القطارات وصوت اطارات عربات القطار على القضبان والحواجز التي ترتفع وتنخفض والاشارات الضوئية التي تتبدل من حين لاخر والسكك التي تتصل وتنفصل، وقطارات الركاب وقطارات البضائع التي تمر ببعضها البعض فيصفر الواحد للاخر للتحية او يلحق الواحد بالاخر على سكك الحديد المتوازية. انه سحر داخل سحر وشعوذة فوق شعوذة.

قال "الدو" بنوع من الاستخفاف:" لقد تلقيته هدية من الشخص الذي وضعني على رجليه عند الطهور والذي يدعى "ماسترو انريكو" والذي يشغل الان منصب نائب ملك فنزويلا.

التزمت الصمت بنوع من الاجلال.

وفكرت في نفسي:

"الرب الهنا ملك العالم."

ثم اضاف "الدو" قائلا بلا مبالاة لقد مللت منه الى حد ما. كما انه ليست لدي رغبة في ان اضيع على الالعاب وقتا يمكن تخصيصه للعزف على الكمان. في الحقيقة انك تستطيع ان تحصل عليه اذا كنت ترغب في ذلك بالطبع".

وغنت نفسي بداخلي: هللويا(١) هللويا. لكنني استمريت في صمتي.
ثم قال "الدو"مصححاً:" لن تأخذه هكذا طبعا، وانما بالتبادل مقابل دراجتك موافق؟" فكرت في نفسي بمرح ها-ها! لكنني قلت بصوت مرتفع:
"نعم ولم لا."

واستمر الدو في حديثه:" طبعا لا اعني ان تأخذ كل شي، ستأخذ مقابل دراجتك مجموعة واحدة كاملة تتكون من قاطرة وخمس عربات وثلاثة امتار من خطوط السكة الدائرية. ان دراجتك في نهاية المطاف بلا جسر، وسأحضر ورقة عقد الان من مكتب ابي، واذا لم تندم ولم تغير رأيك، وهو امر ما زال من حقك، فاننا نستطيع ان نوقع الاتفاقية خلال بضع لحظات ونتصافح. وحاليا اختر من فضلك العدد الذي ذكرته من العربات، والخطوط، وقاطرة واحدة من الصغار وليس من الكبار سأعود اليك حالاً، الى اللقاء."
لكنني لم اسمع شيئا سوى صراخ نفسي التي هاجت في صدري:
"هاي - هاي - هاي احذية "(وهي اغنية جنونية معروفة وكانت منتشرة لدينا في تلك الايام.)
وبعد عشر دقائق من توقيع الاتفاقية خرجت من منزل "قسطلناوبو" باندفاع قطار ينطلق من داخل النفق متجها الى شارع تسفنيا وانا احمل بكلتا يدي الممتدتين الى الامام قليلا علبة احذية مربوطة جيدا وملفوفة بورق هدايا رقيق. ومربوطة بأحزمة زرقاء.

* (١) استعمل عوز "هللويا" من المزامير، وقد وردت بكثرة في المزامير ١٠٤: ٣٥، ١٠٥: ٤٥، ١٠٦: ١ ......

وكانت الساعة كما ظهر من النور والبرد تقريبا نصف ساعة قبل الظلام وقبل وقت وجبة العشاء. سأركب الخطوط في فنائنا الخلفي في بيئة طبيعية متوحشة. واحفر مجرى مائياً ملتوياً واملأه بالماء. وسيعبره القطار فوق الجسر. سأبني جبالا واحفر وديانا وسيكون لي في الفناء نفق سكة حديد تحت الجذور المعلقة لشجرة التين. وسيخرج من هناك خط سكة حديد جديد في معالم ارض متوحشة تتجه الى قفار صحراء سهارى (الصحراء الكبرى) وما بعدها، ثم مع مجرى نهر زامبيز بواكه، اوبانجي شارى (افريقيا الوسطى) عن طريق الصحارى والغابات الكثيفة التي لم تطأها قدم الانسان الابيض بعد.

الفصل الرابع
الثروة ام النفس :

سنضطر قريبا الى ان نتصارع مع عدو قديم، خصم عنيد ومـــــــاكر لا يخشى احدا، وسنضطر الى شق طريقنا وسط شبكة من المؤامرات الدنيئـة والى الامتناع عن سفك الدماء والسيطرة على حيوان صغير مفتـــــــرس.

ان الساعة كما يظهر من خلال النور والبرودة تدنو من بداية الليل ووجبة العشاء.

عند منعطف شارع "يونا" توقفت لحظة كي اقرأ شعارا جديدا مكتوبا على الحائط بلون اسود عريض. لم يكن هنالك اي شعار هنا صباح اول امس اما الان فهنالك فجأة شعار قاس ضد الانجليز وضد دافيد بن جوريون. لقد كان هذا الشعار عبارة عن بيت شعر مثير كما ظهر به خطأ إملائي كبير:

"تبا للكتاب الابيض!

وليستكل بن جوريون!"

وعرفت بسرعة انه جوئيل. ان هذا الشعار لم يكن شعارا للحركة السرية. بل ان جوئيل جرمنسقي هو الذي كتب هذا الشعار. ثم اخرجت مذكرة وقلما ودونت الشعار فربما احتاج لهذه المادة عندما اكبر واصبح شاعرا. وبينما انا اسجل هذا الشعار ظهر جوئيل نفسه من خلفي متسللا هادئا، كبير الحجم ودقيقا كما لو كان ذئبا في غابة. وامسك كتفي بكلتا كفي يديه القويتين. اما انا فلم اقاومه: اولا، بشكل مبدئي فانني لا ابدأ في صراع اولاد اقوى مني،

وثانيا انني اضع تحت ذراعي كما ذكر سابقا علبة القطار الاغلى من اي شيء. وقررت اذن ان احترس وان اكون حذرا جدا.

لقد كان جوئيل جرمنسقي" فتوة" الفصل بل" فتوة" الحي، وكان شاباً قوي البنية، صارما، اما والده فهو نائب مدير مدرستنا وكانوا يقولون عن امه عندنا انها "تعمل في حيفا لصالح فرنسا".

لقد اصبحت انا و "جوئيل" اعداء. منذ الهزيمة الساحقة التي لحقت بنا في عيد البوريم من قبل حي البخاريين وكنت انا و"جوئيل" نتحدث في بعض الاحيان ثم نعود ونتجادل حول اسباب تلك الهزيمة وكنا نتحدث دائما بضمير الغائب، وعندما كنت ارى "جوئبل" يبتسم ابتسامة تحمل في طياتها البلاء. كنت اسعى كي اجد رصيفا اخر، وكانت ابتسامة "جوئيل" تعبر عن الفكرة التالية تقريبا:

"كلهم عداك انت يعرفون جيدا أن أمراً غير سار في إنتظارك وستعرف خلال لحظة انت ايضا وعندها سنضحك جميعا ضحكا متواصلا اما انت فلن تكون لديك اية رغبة للضحك. "

وامسك جوئيل جومنسقي بكتفي وسأل وهو يبتسم:

"ما هذا اذن؟"

قلت له بأدب:" الوقت متأخر وانا مضطر لان اكون بالمنزل، فليسمح لي بالذهاب".

قال جوئيل بعد ان اترك كتفي:" هكذا آه."

ولم يتوقف جوئيل عن النظر اليّ في ارتياب كما لو كانت كلماتي التي نطقتها ماكرة جدا.

ولكن اذا كنت آمل ان انجح في تضليل "جوئيل جرمنسقي" نفسه فان خطأي فادح. وحملق جوئيل فيّ وأضاف بهدوء قائلا:

"يريد ان يذهب، يريد. "

لم يقل هذه العبارة في صيغة سؤال لكنه قالها كما لو كان يذكر ميزة قبيحة ظهرت لديّ في هذه اللحظة تماما، لشدة اسفه وخيبة امله.

قلت في لباقة:" الوقت متأخر."

"اسمعوا ! اسمعوا" صاح جوئيل على مسامع جمهور غير موجود، "متأخر! انه يريد ان يذهب الى المنزل فجأة. انه يريد. انه ليس الا جاسوسا انجليزيا منحطا. ولكن منذ الان انتهينا من وشاياته. منذ الان انتهينا منه نهائيا."

صححت بحذر كبير ما قاله بينما قلبي يخفق بشدة تحت قميص التريكو:

"قبل اي شيء انني لست جاسوسا. "

"لا! آه؟" غمز جوئيل بود وخبث ثم قال:

"اذن، لماذا يقف هنا ويسجل ما هو مكتوب على الحائط، لماذا؟ "

"ماذا في ذلك؟" قلت مندهشا وفجأة ومن خلال شحنة من الشجاعة اضفت قائلا:

"ان الشارع ليس ملكه. ان الشارع مكان عام."

قال جوئيل باسلوب تربوي وبصبر شديد:" ان هذا ما يظنه. فليفتح الان! هيا فليفتح! لنرى ماذا يوجد في داخل هذه العلبة."

"لا اريد"

"فليفتح"

"لا".

"اقول للمرة الثالثة والاخيرة ليفتح لمصلحته، يا بقة يا سومخي أيها الجاسوس الانجليزي، فليفتح او يتركني أساعده في فتحها ساساعده. "

فككت اذن الاشرطة الزرقاء ورفعت ورق الهدايا الرقيق وكشفت لجوئيل جرمنسقي عن قطاري.

سأل باحترام بعد قليل من الصمت:

"كل هذا اعطاه له سرجانت دانلوب مقابل وشاياه!"

"انني لست واشيا وكل ما في الموضوع انني احيانا اعلم سرجانت دانلوب العبرية واتعلم منه الانجليزية، لست واشيا."

"واذا كان كذلك فمن أين اذن حصلت على القطار والقاطرة وكل هذا؟ ربما يكون هذا الكريم المشهور قد بدأ اليوم في توزيع العاب على الفقراء. ربما؟"

اجبت في هدوء وشجاعة:" هذا ليس من شأنه" وبسبب ذلك امسك جوئيل جرمنسقي بقميصي من الامام وشده بقبضته ودفعني الى الحائط هازا اياي مرتين او ثلاث مرات، ولم يكن دفعه لي هذه المرة بوحشية بل كان بحذر كبير، كما لو كنت معطفا شتويا يريد جوئيل ان يبعد منه الغبار او رائحة النفتالين وسأل بعد هزّي كما لو كان خائفا عليّ:

"ربما يتحدث الان، ربما؟"

قلت:" حسنا، حسنا، حسنا، فليترك قميصي. لقد تلقيت هذا عن طريق التبادل."

"ارجو الا يكذب". اظهر جوئيل مخاوفه فجأة وقد بدت على وجهه علامات من القلق الاخلاقي العميق.

فقلت مقسما:" اقسم بحياة والدي ان هذه كل الحقيقة، بالتبادل مع "الدو"، بل ويوجد في جيبي صيغة اتفاقية وها هي لكي يراها بنفسه، بالتبادل مقابل الدراجة التي تلقيتها اليوم من خالي."

قال جوئيل:" الخال يوتسمح. "

صححته:" الخال تسيمح".

قال جوئيل:" دراجة الفتيات".

قلت في اصرار:" لكن يوجد بها فانوس ومولد كهربائي".

قال جوئيل:" "الدو" قسطلنوابو"

وقلت:" بالتبادل وها هي الاتفاقية."

قال جوئيل:" حسنا".

وبعد ان قال كلمة حسنا فكر تفكيرا عميقا، ثم خيم علينا الصمت ولم يكن الظلام قد خيم بعد في الخارج وفي الفناءات وفي السماء، ولكن كان يمكن الاحساس برائحة المساء المقترب.

وبعد الصمت عاد جرئيل وقال:" حسنا الان لديه مقايضة اخرى."

"شمرياهو. تعال هنا، اجلس على الارض! نعم هكذا انت جيد. نعم ها هو. هذا شمرياهو فلينظر اليه قبل ان يقرر. لا يوجد اليوم كلاب كهذه حتى بعد مضي خمسين عاما على الاستيطان اليهودي لم يبع كلب اصيل كهذا. فابوه لدى فاروق ملك مصر وامه لدى استير ويليامس في السينما".

ان صفارة جوئيل الحادة ولقب شمرياهو احضرا الينا كلب ذئاب صغير ومتحمس جدا، يتنفس ويلهث ويقفز. كان لا يزال جرواً تقريبا ويرتعد ويثب ويرقص في سعادة من فرط الانفعال. انه لا يهز ذيله فقط دون توقف بل يهز

كل الجزء الاخير من جسمه. التصق بشدة بجوئيل كما لو كان يريد ان يختبىء في صدره وتسلق عليه باظفاره التي كانت ترتعش من كثرة السعادة. تدلل وتملق وتوسل الى جوئيل. لقد كانت شرارات الحب الذئبي الوحشي تتطاير من عينيه. ووقف على رجليه الخلفيتين وكان ينبش ويحفر فعلا في بطن جوئيل، بكل رغبة وقوة، حتى قاطعه جوئيل فجأة بقوة:

"كفى! اجلس!" وفي غمضة عين توقف شمرياهو عن دلاله ومغازلاته وغير طريقته من النقيض الى النقيض وجلس وذيله مكدس تحته بوجهه المتأمل الجميل . مد ظهره ورأسه وبوزه الى الامام كما لو كان يمسك في طرف انفه الاسود قطعة الشلن ولذا فانه يحرص اشد الحرص على ان يكون جسمه متزنا. اما اذناه المكسوتان بالشعر فقد انتصبتا واتجهتا للامام، وبدت عليه ما يشبه ملامح الجدية والتواضع وكان الكلب في هذه اللحظة يشبه القادم الجديد الذي وصل مؤخرا من المنفى وهو ولد مرتب ونظيف ومهذب يسعى بكل قوته كي يثير الاعجاب حتى انه لا يمكن للمرء بأي حال من الاحوال ان يتمالك نفسه ويتوقف عن الضحك.

امره جوئيل بصوت اجش:" مت!"

وفي غمضة عين ارتمى شمرياهو وانبطح ارضا ورجلاه الاماميتان متجهتان للامام ورأسه ملقى عليهما في خنوع ابدي، وبحزن شعراء لطيف، اما ذيله فلم يتحرك واذناه تتدليان للخلف في يأس وقد توقف تقريبا عن التنفس، حتى عندما كسر جوئيل فرعا صغيراً من شجرة توت كانت خلف الجدار، لم يتحرك شمرياهو، ولم يرمش بعينيه وإنما مرت موجة خافتة من الارتعاشات الصغيرة من رقبته الى ظهره ارتعشت لها فروته ذات اللون الرمادي البني.

لكن عندما القى جوثيل فجأة بعصاه بعيدا وصرخ بصوت مدوٍّ "امسك!" قفز الكلب- لا لم يقفز بل هب من مكانه كشرارة نار تطايرت من حريق عبر الهواء، ورسمت اربعة او خمسة اقواس مشدودة . ونمت له اجنحة غير مرئية ربما كان ذلك اشبه بغضب عارم. انفتح فكا الذئب واستطعت في غمضة عين ان ارى فمه ذي اللونين الاحمر والاسود واسنانه الحادة المفترسة. لقد ادى شمرياهو مهمته ووضع العصا عند رجلي سيده وهناك ركع وجثا لسيده كخضوع العبيد الصامت، كما لو انه يعترف مسبقا بأنه لا يستحق اي شيء، وانه لا يطالب بأي شيء، وانما قام باداء واجبه كامر بديهي. لكن ما قيمة المداعبة او المداعبتين بيني وبينك؟

قال جوثيل:" هذا هو".

رفع الكلب رأسه وحملق في جوثيل، من اسفل الى اعلى بنظرات شوق خفي كما لو كان يريد ان يسأل: انا جيد؟

قال جوثيل:" نعم، انت كلب جيد وستنتقل الآن الى مسكن جديد، واذا لم يعتنِ بشمرياهو جيدا" واستدار اليّ جوثيل دون سابق انذار. "واذا لم يعتن بشمرياهو جيدا سأقتله فورا، سأقتله يا سومخي." وقال جوثيل جرمنسقي هذه الكلمات في تهديد هامس وكان وجهه قريبا جدا من وجهي. سألت كما لو كنت غير مصدق ما سمعته اذناي:" أنا؟" .

قال جوثيل: "سيأخذ سمرياهو الآن وأعرف أنه ليس واشياً لمصلحة الإنجليز". فكرت في نفسي : إن هذا الكلب ما زال جرواً، رغم أنه ليس قليل الحيلة، ولا صغيراً جداً ولكنه سيطيعني بالتأكيد. انه سينقلب عندي ليكون ذئبا حقيقا ذئبا مفترسا فظيعا.

سأل جوثيل:" هل قرأ كتاب "كلب ابنا. بسكر فيل" مرة في حياته؟"
قلت:" بالتأكيد، مثل الجميع ثلاث او اربع مرات على الاقل."
"حسنا. فليعلم ان هذا الكلب مروض على ان يمزق بأسنانه حناجر رجال البوليس الانجليز والواشين اذا سمع كلمة السر وهي اسم ملك انجلترا ولا اريد ان اذكره الان حتى لا ينقض شمرياهو على اي شخص هنا."
قلت "اكيد."
"وعدا عن ذلك فان شمرياهو ينقل قصاصات الورق للمكان الذي يرسلونه اليه ويستطيع ان يقتفي اثر المشبوهين من خلال رائحة الجوارب او اي ملبس اخر".
واضاف جوثيل بعد قليل من الصمت وبدا كما لو كان مترددا كثيرا في اتخاذ قرار يسبب له الما فقال متمتما:
"حسنا، على مايرام، سيأخذ شمرياهو كهدية وهذا يعني انه سيأخذه بالمبادلة ولن يأخذه بلا مقابل بل سيأخذه مقابل القطار".
"لكن".
"لكن اذا لم يوافق على ذلك فسأري كل الفصل اشعار الحب التي الفها عن "استي عنبر" في مذكرة سوداء. وهي التي اخذها الدو من جيب معطفه في غابة تل ارزة."
"سفلة" همست من بين اسناني المطبقة "سفلة واوغاد" (واللفظ الثاني تعلمته من الخال" تسيمح).
لقد وجد جوثيل انه من الافضل ان يتجاهل هذا الوصف اللاذع وان يحافظ على الروح الطيبة التي بيننا:" لحظة! قبل ان يبدأ في الشتم فليسمح لي بأن انهي حديثي. ماذا يجري هنا؟ فليسمح للشخص الاخر بالحديث، فليسمح

وليهدأ: اذا كان موافقا على البدل لن يأخذ شمرياهو فقط لكنني ساعيد له مذكرته السوداء. وعلاوة على ذلك فانه سيشترك في مجموعة "المنتقمون" كمجند جديد. وغير ذلك ساكون مسالما معه. وليفكر قليلا الان حتى يقرر ما هو اكثر مناسبة بالنسبة له."

وفي هذه اللحظة انتابني فجأة شعور غامض جميل واحسست برجفة انفعال في الظهر ودهشة دافئة في الحنجرة وشبه سعادة مرتعشة في ركبتي.

"لحظة، لحظة!" حاولت ان احتج عندما رأيت جوئيل وقد بدأ في ربط اشرطة علبة القطار الزرقاء وأعد منهم في غمضة عين حزاما لعنق شمرياهو.

"خذ يا سومخي" قال جوئيل متوجها اليّ بضمير المخاطب كما لو كنا اصدقاء وكأنه لم يحدث شيء في عيد البوريم اثناء المنافسة مع حي البخاريين وكما لو كنت مثلهم جميعا.

"خذ! امسك بقوة، فربما سيحاول التصرف بطيش في البداية لكنك سترى انه بعد يوم او يومين سيتعود عليك، وحاليا من المستحسن ان تمسكه بالحزام. وسيفعل كل ما ستأمره به خلال يوم او يومين، لكنني اطلب منك ان تقدم لي معروفا وهو ان تعتني به كما ينبغي. إعتنِ به. ولتحضر غدا في الساعة الثالثة بعد الظهر الى المكان السري على سقف بيت طرازان بمبرجر وتقول لبركوخبا على السلم "زنبق الوادي" وتنتظر حتى يجيبك "زنبقة الساحل" ثم تقول "نهر مصر" ثم يسمح لك بالمرور. وهذه هي شعارات مجموعة "المنتقمون". وستقسم هناك اليمين وبعد ذلك تأخذ مني مذكرتك هذه مع الاشعار التي نسيت عن اي شيء تتحدث. هذا هو. اذن ستأتي غدا في الثالثة. فلتأت! شمرياهو! اسرع واذهب الان مع سومخي! هذا هو. اجذبه- سومخي

اجذبه بقوة والى اللقاء."
اجبت بأدب:" الى اللقاء يا جوئيل". كما لو كنت مثلهم جميعا لكن نفسي هاجت فرحا في داخل صدري كعصفور مجنون، يوجد عندي ذئب. يوجد عندي ذئب. يوجد عندي ذئب صغير وسوف يمزق الحناجر وهو عندي.

وكان عليّ ان اسحب الذئب الصغير المتعنت الذي حاول جاهدا ان يغرز باظفاره في شقوق الرصيف وكان يولول بلا توقف ولولات خافتة وخفية لا تتوافق مع مكانته. لكنني لم ارد ان اسمع وتابعت سيري وجري له وروحي تحملها عاصفة الى الغابات المتشابكة والى الادغال الكثيفة. ووقفت هناك وحيدا وشجاعا ومحاطا بلا امل بدائرة صاخبة من اكلة البشر. وهم ملونون بالوان الحرب ويلوحون بالرماح والحراب فاخذت أضربهم ذات اليمين وذات الشمال بيدي العزلاء. وتدفق اخرون لا يعدون ولا يحصون من جوف الغابة وهم يصيحون صيحات الحرب لكي يحلوا محل اخوانهم الذين سقطوا بسببي. واخذت قواي تنهار وتجمع عليْ كثير من الاعداء واحاطوني باسنانهم الحادة وبتهليل النصر فاطلقت صفارة واحدة خافتة فعندئذ قفز عليهم ذئبي الخاص من بين الاغصان المتشابكة. لقد كان قاسيا وفظيعا وهو يقطع الحناجر بأسنانه حتى تفرق المتوحشون في كل ناحية وهم يصرخون خائفين، وبعد ذلك اضطجع عند رجلي وهو يلهث ويتملق وكان ينظر اليّ من اسفل الى اعلى في شوق خفي كما لو كان يريد ان يسأل:
"انا جيد"؟
قلت:" نعم، نعم، نعم، أنت كلب. جيد." وفكرت في نفسي: هذه هي السعادة وهذه هي الحياة وهذا هو الحب. وهذا انا.

وبعد ذلك ارخى الليل سدوله واستمرينا في طريقنا في ظلمة الادغال نحو منابع نهر زامبيز بواكه في بلاد اوبانجى شارى وهو المكان الذي لم تطأه قدم الانسان الابيض بعد ونفسي مشتاقة اليه.

الفصل الخامس
الى الجحيم

لقد فقد شاؤول الملك الاتن فوجد مملكة ونحن ايضا نفقد ونجد.
كيف هبط الليل على القدس وكيف يتم اتخاذ قـــرار مصيـــري.

لكن الشارع كان قد اظلم وكاد الوقت يكون متأخرا. ونجحت في ان اسحب ورائي بقوة الذئب الصغير الذي تلقيته من جوئيل جرمنسقي مقابل قطاري حتى ملتقى شارعي ملاّخي وتسفنيا حيث صندوق البريد، وكان صندوق البريد مثبتا في حائط خرساني وملونا باللون الاحمر الداكن ونقش عليه صورة تاج وظهر تحته الاحرف الاولى (بالانجليزية) لاسم الملك جورج. وعندئذ ملّ الكلب كل ذلك وجذب وقطع اربطة الهدايا الزرقاء التي ربطها جوئيل حول رقبته. ربما اطلقوا له صفارة من بعيد وانا لم اسمعها. لقد عبر شمرياهو المتحرر الطريق بخطوات ذليلة وذيله يتدلى بين رجليه كخرقة وبوزه ذليل وخائف. بدا وكأنه يكاد يزحف، واخذ يبتعد عني، وبدا وكأنه يعترف انه تصرف معي بنذالة لكنه يدافع عن نفسه بقوله:

"هذه هي الحال يا حبيبي. هذه هي الحياة."

وها هو قد اختفى عن عيني في الظلام في داخل احد الفناءات.

حل الظلام.

ان هذا الكلب السيء سيعود الان بالتأكيد الى سيده الحقيقي اما انا فماذا بقي لي؟

لم يبق لي سوى جزء صغير من الرباط الازرق الذي ربطه "الدو قسطلناوبو" حول علبة القطار وربطه جوئيل جرمنسقي حول عنق الكلب وانا وحدي الان وليس معي شيء.. وهذه هي الحياة.

دخلت اذن الى فناء كنيس "شأريت هبليطا" (البقية الباقية) (اذ يوجد لي طريق مختصرة من هناك الى حانوت جزارة اسرة "بمبرجر" ثم الى المنزل) ولم اسرع لانه لم يعد لديّ اي سبب للاستعجال، بالعكس، جلست على صندوق واصغيت للضوضاء التي حولي وغرقت في التفكير.

وأخذ المساء المبكر والدافئ ينساب بهدوء من حولي. لقد سمعت اصوات راديو من خلال النوافذ المفتوحة وسمعت صوت ضحك وتوبيخ. ان اي انسان لن يهتم بما سيحدث لي الان. انني لن اهتم طيلة حياتي بما سيحدث للاخرين، ومع ذلك اسفت لأن كل شيء يتبدل في العالم ولن يبقى شيء في العالم على ما هو عليه. بل واسفت ايضا على هذا المساء الذي سيمضي ولن يعود ابدا رغم انه في الحقيقة لم يكن لديّ اي سبب لكي احب هذا المساء بالذات وربما بالعكس، ولكني اسفت على ما حدث ولن يحدث ثانية، واعتقدت انه يوجد في العالم مكان بعيد ربما في بلاد اوبانجى شارى او بين جبال الهمالايا يمكن ان تأمر الوقت الذي يتغير بالا يتغير والنور الذي يتبدل بالا يتبدل كما فعل يوشع بن نون(١) في سفر يوشع. واثناء ذلك كانت هناك إمرأة تنادي من

---

(١) يوشع بن نون خليفة موسى الذي قاد العبرانيين في عبورهم نهر الأردن وفي غزوهم لارض كنعان وهو صاحب معجزة الشمس اذ طلب من الشمس ان تتوقف عن الغروب حتى ينجز عمله فسخرها له الله

احدى الشرفات على جارة لها "ايتها الغبية الحمقاء" وردت هي من جانبها: "انظروا من هي التي تتحدث" انها السيدة "روطلوي" التي تتحدث". وبعد ذلك جاءت عدة جمل غامضة وغير مفهومة فربما كانت باللغة البولندية. وعندئذ علت فجأة صرخة مرعبة من ناحية شارع "زكريا" وتمنيت للحظة ان تكون حشود من الهنود الحمر قد هجمت على الحي كله واخذت تسلخ جلود رؤوس جميع السكان دون رحمة، لكن لم يكن ذلك الآ قطاً صرخ فقط من شدة الحب.

بين كل اصوات المساء كان بالامكان الاحساس ايضا بالروائح رائحة كرنب حامض ورائحة زفت ورائحة زيت مقالي ورائحة قمامة آخذة بالتعفن في صفائح القمامة ورائحة غسيل دافىء ومبلل وضع على الحبال لكي يعبث به نسيم المساء: لان الظلام حل بالقدس.

اما انا فجلست على صندوق فارغ في فناء كنيس" شأريت هبليطا" واخذت افكر لماذا احاول ان انكر هذا بالنسبة لأستي.

بالتأكيد ان استي تجلس الان في هذه اللحظات من المساء في حجرتها التي لم ارها من قبل ابدا، ولن اراها ابدا، من المؤكد انها اغلقت ستارتيها الزرقاوين اللتين اعرفهما جيدا لانني نظرت اليهما الف مرة من الخارج، وهي تعد الان بالتأكيد الوظائف البيتية التي نسيت انا ان اقوم بها، وتجيب بخط يدها الدائري على الاسئلة السهلة التي اعطاها لنا السيد "شيطريت" مدرس معالم البلاد او ربما تحل وتصلح ضفائرها او تجهز الزينة لحفلة نهاية العام ببال طويل. ان جيبتها مشدودة جيدا الى ركبتيها واظافرها دائرية ونظيفة وليست سوداء او مشققة كأظافري. انها تتنفس في هدوء وشفتاها لا تنغلقان تماما كما كانت في الفصل دائما، واحيانا تحاول ان تصل بطرف لسانها الى

ذرة ما غير موجودة على شفتها العليا. انني لا اعرف ما هي الموضوعات التي تفكر فيها. انها لا تفكر فيّ واذا ذكرتني بالصدفة فانها تناديني بالتأكيد اثناء تفكيرها "سومخي هذا البغيض" او "سومخي الولد المجنون".

فمن الافضل لي الا تتذكرني ابدا.

وعموما كفى. فانا ايضا يجب ان اكف عن التفكير في أستي وعليّ ان اقيم الامور تقييما صحيحا وعليّ ان اتخذ قرارا واحدا عاجلا.

ركزت تفكيري كما علمني والدي اثناء اتخاذ القرار بأن انظم كل شيء على بطاقة وان اسجل بجوار كل فكرة ايجابياتها وسلبياتها، وان ابدأ في حذف الامكانيات السيئة واحدة تلو الاخرى وان انظم تدريجيا الافكار التي يتقبلها المنطق حسب العلامات. ان قلم الرصاص لن يستطيع افادتي في ذلك الوقت لان نور النهار قد تلاشى منذ فترة ولذلك فقد اعددت الافكار شفهيا على النحو التالي:

(أ) من الممكن ان اقوم واتجه الى المنزل مباشرة وادخل متأخرا خالي الوفاض واخبرهم بأن الدراجة قد سرقت او صودرت بواسطة جنود انجليز سكارى، ولم اعارضهم لان والدتي حذرتني اكثر من مرة بأنه يجب الا اتحرش بهم.

(ب) من الممكن ان اعود الى منزل "الدو" فتفتح لي المربية الارمنية لويزا الباب الخشبي الاسود وتقول لي انتظر لحظة وتدخل بمفردها لكي تخبرهم بأن السيد الصغير قد عاد ويريد ان يتحدث مع سيدنا الصغير وتدعوني بعد بذلك باحترام لكي ادخل الى حجرة السيدة الفاخرة التي ترتدي فستان النسيج الكتاني الرقيق والى المتسول القديس الذي يتلقى من يدها عملة ذهبية. انني مضطر ان اكشف لأم الدو بأنني بعت الدراجة لالدو كما وقعت على اتفاقية.

وبالتأكيد فان ام "الدو" ستعاقبه عقابا شديدا لانهم لم يسمحوا له ابدا بركوب الدراجة. وسيكون هذا من جانبي بمثابة وشاية سافلة وحقيرة ولن يعيدوا لي الدراجة لان القطار غير موجود. وهذا شيء لن آخذه بالاعتبار.

(ج) من الممكن ان اعود الى جوئيل جرمنسقي واخبره بصوت بارد يحمل في طياته نبرات الشر: "فليعد لي القطار فورا. كل شيء ملغٍ فاما ان يعيده واما ان اقضي عليه نهائيا، اقضي عليه.."

ولكن كيف يمكن هذا؟

(د) من الممكن ان اعود الى جوئيل جرمنسقي بشكل ودي واحييه واسأله عن احواله وعن اخباره واسأله بضحك عما اذا كان شمرياهو قد عاد اليه مصادفة ام لا.

نعم. اكيد. واي ضحك سيكون في كل الحي غدا، واي مهانة.

(هـ) من يريد هذا الكلب الحقير؟ ومن يريد اي شيء؟ انني لا اريد اي شيء، وكفى. عدا عن ذلك من قال ان شمرياهو قد هرب وعاد الى جوئيل جرمنسقي؟ لقد اسرع شمرياهو في الظلام الى غابة تل ارزة واتجه من هناك الى الجبال القاحلة ثم الى غابات الجليل لكي ينضم الى قطيع الذئاب ويعيش حياة الذئب بحرية ويمزق الحناجر باسنانه. ولعلي اقوم انا ايضا في هذه اللحظة واذهب بمفردي الى غابة تل ارزة واتجه من هناك الى الجبال والمغارات والى الجحيم وامكث هناك على الدوام واعيش حياة لص. وسألقي بخوفي مرة واحدة والى الابد على جميع البلاد.

فليعرفوا.

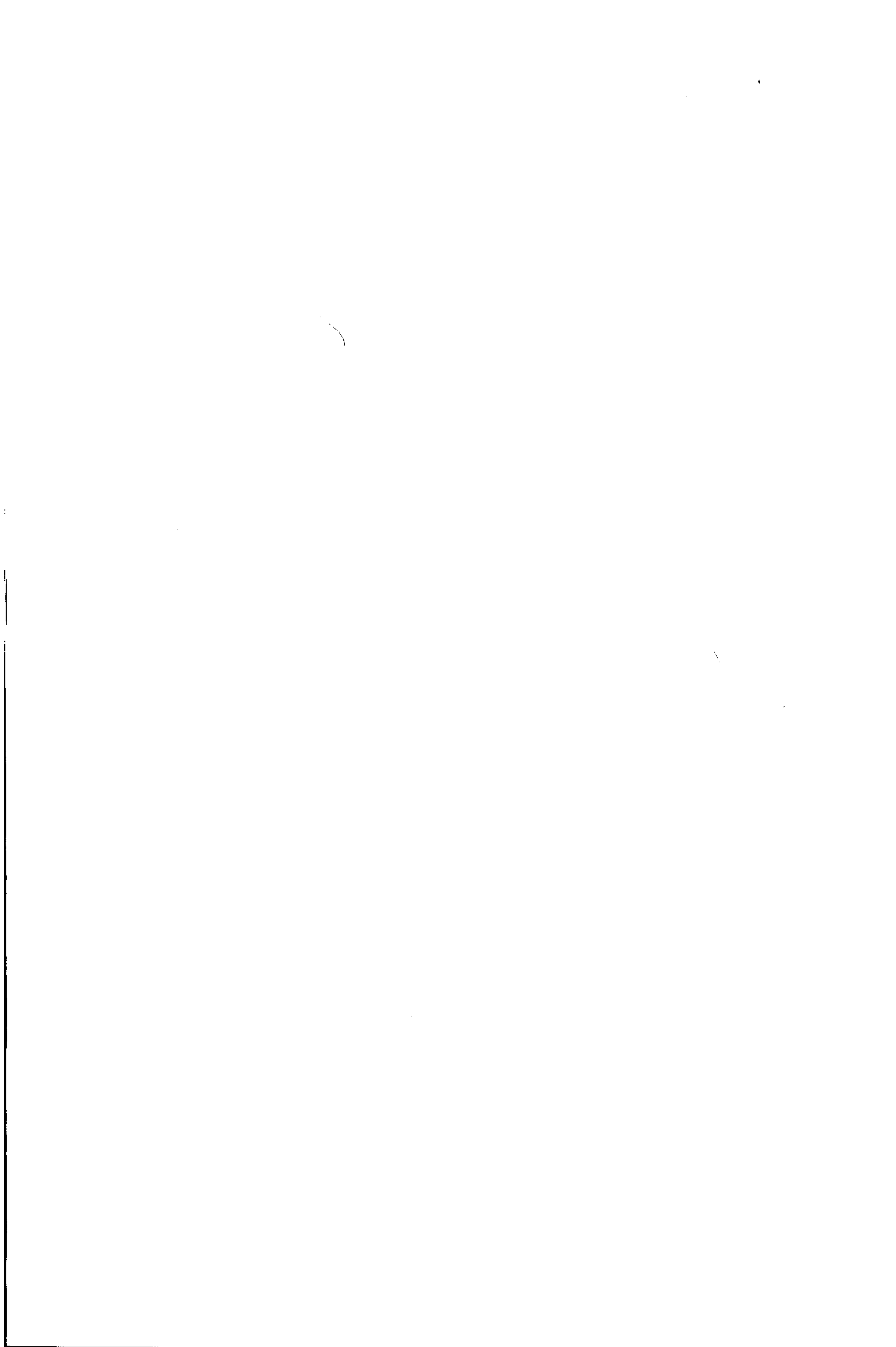
ومن الممكن ايضا ان اذهب في نهاية المطاف الى المنزل واخبرهم بتواضع بكل

الحقيقة وان اتلقى صفعتين مؤكدتين على وجهي، واعدهم بأنه من اليوم فصاعدا لن اكون ولدا مجنونا وسأكون ولدا ذكيا وممتازا. وسيرسلونني غدا ومعي خطابات اعتذار مهذبة كتبها أبي للسيد جرمنسقي والى السيدة قسطلناوبو واحاول انا ان اجد التبريرات واعدهم جميعا بأن كل شيء لم يكن بجدية وابتسم ابتسامة حمقاء. واطلب منهم جميعا المعذرة واقول لهم "انني آسف جدا على كل ما حدث"، وهذا شيء لن آخذه بالاعتبار. الحاء؟ الطاء؟ الياء؟ غير مهم. الامكانية التالية هي ان اذهب وانام في الاماكن المهجورة. مثلما فعل "هكلبري بين" في قصة "توم سوير" سأنام الليلة تحت سلم منزل اسرة "عنبار" وفي منتصف الليل اتسلق بالمزراب الى داخل حجرة استي واهرب انا وهي قبل شروق الشمس الى بلاد اوبانجي شارى. لكن استي تكرهني، وربما ما هو اسوأ من الكراهية وهو ان أستي لا تفكر فيّ ابدا.

امكانية اخرى وهي مثلما حدث في اجازة عيد الفصح عندما سافرت مع سرجانت دانلوب في سيارته الجيب الى القرية العربية صور باهر ولم اخبر ابي وامي بذلك. فمن الممكن هذه المرة ان اذهب الى منزل الخالة عدنا في حي "يجيع كبيم" (جد واجتهاد) واخبرها بوجه حزين ومتطاول ان ابي وامي سافرا كي يزورا اصدقاء لهما في حي بيت هكيرم، وسيعودان متأخرين جدا بالليل وقد تركا لي مفتاحا وانا، كيف اقول، اضعت الى حد ما المفتاح، لكن الخالة "عدنا" بكل الفواكه البلاستيكية في سلالها والزهور الورقية والتزينات والقبلات والمداعبات. لا بأس. فليكن. على الاقل سنكسب ليلة واحدة وفي نفسي الوقت سيجن كل من ابي وامي من كثرة القلق عليّ وسيكونان سعيدين غدا عندما يعرفان انني ما زلت على قيد الحياة حتى انهما لن يتذكرا ان يسألاني عما

حدث للدراجة. وهذا هو. هيا. لكن عندما قررت في النهاية بشكل قاطع ان اذهب بغية البحث عن ملجأ في منزل الخالة عدنا في حي "يجيع كبيم" لمع شيء ما بين ابر الصنوبر الجافة على الارض المظلمة فانحنيت ثم انتصبت واذا هي مبراة.

حقا انها ليست مبراة كبيرة وليست جديدة تماما لكنها مصنوعة من المعدن، ومطلية بالفضة وثقيلة جدا قياسا لحجمها وباردة ورقيقة جدا على كف اليد التي تمسكها. انها تستطيع ان تبري اقلام الرصاص ومن الممكن ان تكون كدبابة في حرب الازرار على السجادة. شددت اصابعي، اذن، حول مبراتي واتجهت مسرعا الى المنزل ولم اكن خالي اليدين.



الفصل السادس
وضاع كل شيء

"لن تطأ قدماي للابد." انني استعد لكي اعبر سلسلة جبـــــال
مؤاب على الاقدام لكي اطل من بعيد على سلسلة جبال الهمالايا.
دعوة مفاجئة لن افتح اصابعــي المطبقة ما دمت حيــــــــا.

سأل ابي في هدوء:

"هل تعلم كم الساعة الان؟"

قلت بحزن وانا اضغط على المبراة التي في يدي: "الوقت متأخر".

"الساعة السابعة وست وثلاثون دقيقة" اشار والدي وهو يغلق باب المنزل بجسمه وقد حرك رأسه عدة مرات لاعلى ولاسفل كما لو كان قد وصل الى حقيقة مؤسفة لكنها مؤكدة واضاف:

"لقد تناولنا الطعام."

همست بصوت خافت:" آسف."

قال ابي في هدوء:" لقد أكلنا وغسلنا الاطباق." اما انا فقد عرفت جيدا ماذا يعني هذا الهدوء وقلبي اخذ يخفق ويخفق.

"أين كان سيدي الفاضل كل هذا الوقت؟ واين الدراجة؟"

"الدراجة؟" قلتها بدهشة وقد اختفى الدم من وجهي.

كرر ابي قوله ثانية بصبر ودقة " الدراجة" وشدد على طريقة نطقها الصحيح . "الدراجة" تمتمت وراءه بنفس طريقة نطقه :"نعم، الدراجة لدى صديق لي. لقد

تركتها لدى احد الاصدقاء."

وقبل ان انجح في منعهما اضافت شفتاي:

"حتى غدا."

رد ابي في عطف:" هكذا" كما لو كان يشاركني في معاناتي وكمن يتطوع لنصحي نصيحة بسيطة وجميلة:

"هل يمكن ان اعرف من هذا الصديق المحترم وما اسمه في امتنا؟"

قلت:" هذا ما لا استطيع ان اكشف عنه."

"لا؟ "

"لا "

"هل في جميع الاحوال لا؟"

"في جميع الاحوال. "

وعرفت الآن انه قد حان وقت الصفعة الاولى المفاجئة. فانكمشت بقوة كما لو كنت ارغب في اخفاء رأسي بين كتفي واخفاء جسمي كله داخل حذائي واغمضت عينيّ وضغطت بكل قوتي على مبراتي.

انتظرت لمدة ثلاثة او اربعة انفاس بطيئة وطويلة. لكن لم تأتِ اية صفعة.

ثم فتحت عينيّ وحركت رموش عيني ووقف ابي منتظرا حتى انهيت من كل هذه الحركات وقال في النهاية:

"سؤال واحد اخر ان كل سيدي المبجل سيسمح بذلك. "

همست شفتاي دون ان اشعر بهما "ماذا؟"

"هل من الممكن ان ارى ماذا يخفي فخامته عنا في يده اليمنى؟"

"غير ممكن!" همست واحسست ببرودة مفاجئة في قدمي.

"حتى هذا غير ممكن؟"

"لا استطيع يا ابي".

اجمل ابي قائلا في حزن :"فخامته لن يعطف علينا اليوم"، ومع ذلك لم يعبأ بكرامته وناشدني:

"على الرغم من ذلك، لعلك تريني لمصلحتي ولمصلحتك ولمصلحتنا سويا. "

"لا استطيع."

"ارني ايها الولد المجنون؟" صرخ ابي وبدأت بطني تؤلمني جدا في نفس اللحظة.

قلت:" بطني تؤلمني جدا".

"ارني ماذا تخفي في قبضة يدك قبل كل شيء".

توسلت اليه" لاحقا".

قال ابي وقد تغيرتِ نبرات صوته:" حسنا".

ثم عاد وقال ايضا فجأة:" حسنا" وتحرك من الباب وعندئذ رفعت عيني اليه وكلي امل في نهاية المطاف ان يعفو عني ونزلت الصفعة الاولى المفاجئة في نفس اللحظة.

ثمّ الثانية. وجاءت الثالثة بعدهما. ومن خوفي انحنيت وقفزت من هناك وركضت بسرعة للخارج الى الشارع الى الظلمة اجري بتواضع وخوف. اجري بكل قوتي، تماما مثلما فعل كلب جوئيل عندما هرب مني. جريت وكدت ابكي وراودني قرار رهيب: لن تطأ قدمي هذا البيت ابدا ولا في الحي ولا في القدس وسأخرج في هذه اللحظة الى الطريق التي لن اعود منها ابدا. الى الابد.

وهكذا مضيت في طريقي لكن ليس الى افريقيا مباشرة كما كنت اخطط

مسبقا وانما في اتجاه شارع جنولة وناحية "منه شعاريم" ومتجها ناحية وادي قدرون (وادي جهنم). ومن هناك عن طريق جبل الزيتون وصحراء يهوذا الى معابر الاردن ومن هناك الى جبال مؤاب وما بعدها.

انني عندما كنت في السنة الثالثة او الرابعة تقريباً شغلت تفكيري سلسلة جبال الهمالايا: انها سلاسل جبلية باذخة في اعماق قارة آسيا (ووجدت في الموسوعة هذا النص: "وهنالك يشمخ اعلى جبل في العالم لم تطأ قدم انسان صرحه") وبين هذه الجبال رجل الثلج الضخم الغامض يتسكع متربصا للفريسة في وديان نسيها الله.

لقد ملأت هذه الكلمات قلبي بالخوف والسحر:

سلسلة جبال .

يشمخ .

يتسكع.

باذخة .

يتربص للفريسة.

منحدرات صخرية، وديان.

ثلوج دائمة .

صرح .

وتفوقها جميعا كلمة "همالايا" المدهشة التي كنت اكررها في ليالي الشتاء من تحت البطانية الشتوية باكثر الاصوات انخفاضا وخشونة والتي استطعت ان انطقها من اعماق صدري: هي - ما - لا - يا.

واذا نجحت في تسلق قمم جبال مؤاب التي في الشرق، كنت اتمنى لو

استطيع ان ارى من هناك جبال الهمالايا نفسها في الفضاء الازرق، تماما مثلما يرون جبال مؤاب من قمة جبل المشارف (سكوبس) من عندنا. سأنظر من بعيد الى جبال الهمالايا الشاهقة وبعد ذلك اتجه من ارض مؤاب جنوبيا عن طريق الصحراء العربية واعبر مضيق الدموع واهبط على شواطىء القرن الافريقي واتغلغل الى الادغال الكثيفة واصل عبرها الى منابع نهر زامبير الموجودة في بلاد أوبانجي شاري واعيش هناك في نهاية المطاف بمفردي حياة حرية ووحشية.

هكذا امتلأت احساسا باليأس والحماس فاخذت اتقدم جهة الشرق حتى نهاية شارع جنولة حتى التقائه بشارع "طشنسلور" لكنني عندما وصلت الى حانوت البقالة الذي يمتلكه السيد بياليج سيطرت عليّ فجأة فكرة عنيدة وملحة تقول:

"ولد مجنون، ولد مجنون، ولد مجنون، ولد مجنون."

ألست انت مجنونا فعلا مثل الخال يوتسيمح بل ربما اكثر منه ومن يدري لعلك قد تصبح سمسارا مثله.

فما هو معنى "سمسار"؟ بالضبط- لا ادري . لقد تراكم عليّ الحزن والاهانة لدرجة لا اتحملها.

لقد اظلم شارع جنولة تماما ولم يكن هذا الظلام هو ظلام بداية الليل الذي تصاحبه صرخات الاولاد واصوات الامهات، بل كان ظلام وقت متأخر. ظلام كله برودة وصمت وكان من الافضل ان اراه من الداخل من السرير ومن خلف فتحات الشيش، والا تكون اسيرا فيه بمفردك. ومر بعض الناس بين الحين والحين في الشارع وهم مسرعون. ان السيدة سوسكين عرفتني وسألتني عما

بي لكنني لم اجبها بأية كلمة. وبين الحين والحين تمر سيارة عسكرية انجليزية من معسكر شنلر وهي تسير بسرعة جنونية. انني سأجد سرجانت دانلوب يتنزه مع الكلب فوديل في شارع هطوريم او في شارع تحكموني وسابلغه في هذه المرة اخبارا عن جوئيل جرمنسقي بأنه كتب شعارا ضد المندوب السامي. سأسافر الى لندن واكون عميلا مزدوجا وامسك ملك انجلترا واخبر الحكومة الانجليزية بكلمات بسيطة، اعطونا ارض فلسطين- تحصلوا على ملككم، وان لم تعطونا - لن تحصلوا على شيء. (وتعلمت هذه الفكرة ايضا من الخال تسيمح) واعددت تفاصيل الخطة هنا على درجات حانوت بقالة السيد بياليج لقد كان الوقت متأخرا ان هذا الوقت هو الذي يهجم فيه ابطال الحركة السرية من مخابئهم ويتربص لهم في كل مكان مخبرون سريون ووشاة وكلاب بوليسية.

لقد كنت بمفردي.

لقد اخذ الدو دراجتي مني وجعلني اوقع على اتفاقية ثم وقع قطاري في يد جوئيل جرمنسقي. ان الذئب المروض يسعى الى الغابات بدوني. لن تطأ قدماي عتبة منزل والديّ ابدا. استي تكرهني. وقد سرق مني الدو الحقير مذكرة الشعر وباعها لجوئيل الشرير.

ماذا تبقى؟

بقيت المبراة.

ماذا ستعطيني وماذا ستضيف لي المبراة؟

لن تضيف شيئا. وعلى الرغم من هذا سأحافظ عليها دائما. هذا تعهد. لن تخرج اية قوة في العالم مبراتي من يدي. وجلست حوالي التاسعة او

التاسعة والربع ليلا على سلالم حانوت البقالة المغلق الذي يمتلكه السيد بياليج اكاد ابكي. وهكذا وجدني أيضاً الرجل قليل الكلام الطويل القامة، الرجل الذي كان يسير في الشارع المقفر وهو يدخن في هدوء من غليون عليه غطاء مصنوع من الفضة: انه والد استي المهندس عنبار.

"آه" قالها بعد ان انحنى ورأى وجهي "آه، انه انت: ها : هل يمكن ان اساعدك في اي شي؟"

لقد كان امرا جميلا ومدهشا من وجهة نظري ان المهندس عنبار لم يتحدث اليّ باللغة والنبرة التي يتحدثون بها مع الاولاد ، لكن حديثه كان كحديث الكبار بينهم وبين انفسهم، "هل يمكن ان اساعدك في اي شيء؟" كما لو كنت، فرضاً، سائقاً يبذل قصارى جهده كي يبدل اطار العجلة في الظلام، قلت:" شكرا."

سأل المهندس عنبار "ما المشكلة؟"

قلت:" لا شيء. كل شيء على ما يرام."

"لكنك تكاد تبكي".

"لا ابدا. انني لا اكاد ابكي انني اشعر بالبرد فقط".

"تمام. هل نحن ذاهبان بالصدفة الى نفس الاتجاه؟ وهل انت في طريقك للبيت؟"

" ليس لي منزل"

"ماذا يعني هذا"؟

"هذا يعني ان والديّ سافرا إلى تل ابيب وسيعودان غدا وقد تركا لي طعاما في الثلاجة، وكان معي مفتاح مربوط في رباط ابيض. .."

"ها. فهمت: لقد فقدت المفتاح ولا يوجد لديك الان مكان تذهب اليه. فعلا لقد حدث لي شيء مشابه لهذا تماماً عندما كنت طالبا في برلين، فهيا نذهب الإن، فلا يوجد اي معنى لجلوسك هنا وانت تكاد تبكي حتى صباح غد".

"لكن.. اين نذهب؟"

"عندنا طبعا. ستنام لدينا الليلة، يوجد اريكة في حجرة الضيوف وايضا يوجد سرير يمكن طيه في مكان ما، كما ان أستي ستسعد بك بالتأكيد. هيا نذهب".

كم خفق القلب الاحمق طول الطريق من تحت القميص ومن تحت القميص الداخلي ومن تحت الجلد والعظام. استي ستسعد. استي ستسعد. لقد انطلقت رائحة شجر الرمان من البحر الميت حتى اريحا. "استي" ستسعد. وارجو فقط الا تضيع هذه المبراة الجميلة مبراة الحظ الموجودة في داخل قبضة يدي التي في داخل جيبي.

الفصل السابع
إحدى ليالي الحب

مـــــن يفقد كل شيء يستحق ان يكون سعيـــــدا.

عندما يعطي المرء كل ثروة بيته بمحبة، وكيف لم نخجل.

جلسنا هناك، انا والمهندس عنبار، وتناولنا وجبة العشاء سويا وتحدثنا عن الوضع السياسي في البلاد. لقد كانت والدة استى قد تناولت وجبتها قبل مجيئنا اما أخو أستي الاكبر فقد سافر لكي يبني كيبوتسا جديدا في سهل بيسان، وقدمت لنا والدة استى في طبق من الخشب بعض شرائح من الخبز الغريب، وكان خبزا اسمر شديد السمرة وجافا مع جبنة عربية مالحة جدا وعليها مكعبات صغيرة من الثوم، وكنت جوعان، وبعد ذلك اكلنا فجلا ذا لون احمر من الخارج وابيض ورطباً من الداخل واكلنا اوراق خس كبيرة وشربنا لبن عنز ساخن. (عندنا، اقصد في بيتي السابق، كنت اتناول كل مساء عجة بيض وبندورة وخيارا وسمكا مملحا ولبنا وكاكاوا، وكان ابي وامي يتناولان نفس الوجبة ولكنهم يختتمونها بالشاي وليس بالكاكاو).

جمعت السيدة عنبار الاطباق والفناجيل وعادت الى المطبخ لكي تطهو وجبة غذاء ليوم غد وقالت:

"الان نترك الرجال بمفردهم لكي يتحدثوا بلغة الرجال".

خلع المهندس عنبار حذاءه ومد رجليه على كرسي صغير واشعل الغليون وقال: "نعم. جيد جدا".

اما انا فضغطت على المبراة التي في جيبي وقلت:

"شكرا جزيلا".

وبعد ذلك تبادلنا الاراء حول الوضع السياسي، وكان المهندس عنبار يجلس على كرسيه اما انا فكنت جالسا على الاريكة، لقد كان الشيش مغلقا لكن النور دخل من المصباح الكهربائي الذي يشبه فانوس الشارع واضاء فوق عمود نحاسي بجوار المكتب بين حائط الكتب والخرائط وبين حائط الغلايين والهدايا التذكارية. وكانت في الحجرة كرة ارضية ضخمة اجنبية موضوعة على قاعدة ويبدو انه من الممكن جعلها تدور ذات اليمين وذات الشمال بحركة اصبع خفيفة وكدت لا ازحزح بصري عن هذه الكرة الارضية الضخمة.

وكانت استي طيلة هذا الوقت في الحمام، لم تخرج. كان صوت المياه المتدفقة يسمع احيانا من وراء باب مغلق في اقصى الممر وكانت تغني اغنية معروفة للمغنية شوشانا داماري.(١)

قال المهندس عنبار من بين سحابة البيب التي اطلقها:" ليس هناك شك في ان التوراة وعدتنا بهذه البلاد كلها. لكن التوراة كتبت في احد العصور ونحن نعيش في عصر آخر تماما".

"ماذا يعني هذا!" رفعت صوتي بغضب ولكن بصورة مهذبة:" ليس هناك اي فرق! ربما سمى العرب انفسهم في تلك الايام يبوسيين او كنعانيين (٢) وسمي

---

* (١) شوشانا داماري: مغنية اسرائيلية معاصرة يطلقون عليها لقب مغنية الجيل.

* (٢) اليبوسيون والكنعانيون: من الشعوب القديمة التي كانت تقطن فلسطين قديما. ولمزيد من التفاصيل انظر: محمد عزة دروزة. تاريخ موجات الجنس العربي، المكتبة العصرية بيروت، صيدا بدون تاريخ ص: ٤٥ وما بعدها.

البريطانيون فلسطينيين، ماذا يعني هذا ؟ يعني هذا ان اعداءنا يبدلون القناع، لكنهم يضايقوننا دائما. ان كل اعيادنا تثبت ذلك. نفس الاعداء دائما. وهذه الحرب نفسها تستمر بلا توقف".

لم يتسرع المهندس عنبار في الاجابة. بل امسك البيب من قمته واستعمله في حك مؤخرة رأسه.

وبعد ذلك بدا كما لو كان من الصعب عليه ان يجد اجابة على اقوالي وبدأ في جمع فتات التبغ الذي سقط منه على الشرشف الموجود على المنضدة ووضع هذه الفتات بحذر في الطفاية. وبعد ان انتهى من جمع فتات التبغ رفع صوته وقال:

"استر. لماذا لا ترسين في الميناء وتأتين لتري من ينتظرك هنا؟ اجل! ضيف! مفاجأة! لا استطيع ان اكشف عن شخصيته. هيا اصعدي على اليابسة وانظري بعينيك! نعم. العرب والانجليز. بلا شك كنعانيون وفلسطينيون من بطون امهاتهم، فكرة جميلة. لكن حاول ان تقنعهم بأن يتكرموا برؤية الوضع من وجهة النظر هذه. ان ايام التوراة مضت وولت اما ايامنا هذه فهي موضوع اخر. فمن يستطيع اليوم ان يقلب العصى الى تماسيح وثعابين او ان يضرب العصي في الصخور حتى تظهر المياه؟ لقد احضرت هذه الحلوى الاسبوع الماضي من بيروت مباشرة. بالقطار. فلتأكل، هنيئا لك. لا تخف. انها تسمى "راحة الحلقوم". فلتأكل. هل ترى؟ حلوى شهية. وهل انت، كما أفترض، تنتمي الى حزب معين؟"

"انا... نعم..." تلعثمت "لكن ... لست مثل ابي... بالعكس...."

"انك تؤيد عمليات الحركة السرية تأييدا تاما وتعارض كل الحلول الوسط" اكد المهندس عنبار دون علامة استفهام.

"حسناً وجميل. اذن، بيننا خلافات في الرأي في هذه القضايا. وبالمناسبة حقيبتك بما فيها من الكتب والكراسات من المؤكد انها بقيت هي ايضاً في شقتكم المغلقة. يالها من ورطة. سنذهب صباح غد من هنا الى المدرسة مع استر بدون حقيبة. استر هل غرقت هناك؟ هل نلقي اليك عجل الانقاذ؟".

"من فضلك، هل من الممكن ان آخذ قطعة اخرى؟" سألت بأدب ولكن بشجاعة ودون ان انتظر الرد قرّبت نحوي طبق "راحة الحلقوم" التي كانت لذيذة فعلا على الرغم من انها جاءت الى هنا من بيروت مباشرة.

لقد شعرت بالراحة في هذه الحجرة بين جدار الكتب والخرائط وجدار الغلايين والهدايا التذكارية خلف الشيش المغلق وانا منهمك في حديث رجال صريح وموضوعي مع المهندس عنبار. كان شيئا جميلا من وجهة نظري ان المهندس عنبار لم ينهرني او يسخر مني لكنه اشار ببساطة انه يوجد بيننا خلاف في الرأي. وكم احببت في ذلك الوقت تعبير "خلاف في الرأي." وكم احببت ايضا والد أستي تقريبا كما احببت استي، ولكن بشكل مختلف، وربما اكثر مما احببتها هي. كان من الممكن ان ابدأ فجأة واكشف له دون خوف عن الكذب الذي كذبته عليه وان اشرح بصدق ماهي الاسباب واخبره بكل الاهانات والمخازي التي حدثت لي اليوم ولا اخفى عنه المكان الذي رغب في الوصول اليه وما هو مسار الرحلة. لكن "أستي" خرجت في النهاية من الحمام وكم اسفت لان حديث الرجال الذي دار بيننا يجب ان يتوقف الان. ان ضفائر أستي لم تظهر وبدلا منها تهدل على كتفيها شعر غزير اشقر مغسول دافىء ومبلل يكاد البخار يتصاعد منه. وكانت ترتدي بيجامة مرسوماً عليها افيال كبيرة وصغيرة وملونة بالوان مختلفة، وكانت تنتعل في قدميها حذاء والدتها المنزلي

الكبير. وعندما دخلت الى الحجرة رمتني بنظرة خاطفة حادة واقتربت في التو من الكرسي الذي يجلس عليه المهندس عنبار.

وكأنني لم اكن سوى صحيفة الامس التي نسيت على الاريكة.

وكما لو كنت اتوقف هنا كل مساء وانا في طريقي الى بلاد "اوبانجي شاري" فلم يكن فيّ اي تجديد.

سألت استي اباها:" هل كنت اليوم في اريحا؟"

"نعم"

"هل اشتريت لي ما طلبته ؟"

"لم اشتر "

"هل كان غاليا؟"

"صحيح ."

"هل ستحاول ان تبحث من اجلي عن ذلك مرة ثانية عندما تكون في بيت لحم؟"

"نعم "

"واخبرني هل انت الذي احضرته الى هنا؟"

"نعم ."

"ماذا حدث؟ ماذا حدث له فجأة؟"(لم اكن استحق بعد نظرة او كلمة من استي فالتزمت الصمت.)

"والداه سافرا وفقدا المفتاح، كما حدث لي عندما كنت طالبا في برلين. التقينا في شارع جنولة واقترحت عليه ان يأتي عندنا، لقد قدمت له امك طعاما. ويستطيع ان ينام اليوم على الاريكة الموجودة في حجرة الضيوف او عندك في

حجرتك على السرير الذي يطوى. كما تريدين."
الآن، فجأة، توجهت أستي اليّ قائلة دون ان تدير رأسها:
"هل تريد ان تنام في حجرتي؟ عدني ان تروي لي قصصا مجنونة قبل النوم؟ "
"لا فرق عندي" تمتمت شفتاي رغما عني لانني كنت مندهشا.
سألت استى والدها في قلق بسيط :"ماذا قال؟ لعلك سمعت ماذا قال."
رد المهندس عنبار:" يبدو لي انه ما زال يدرس الامكانيتين." ضحكت أستي قائلة:" يدرس يهرس فلينم اذن في حجرة الضيوف وانتهينا منه. ليلة هادئة."
"لكن استي" نجحت في النهاية ان اصرخ لكن في همس.
"ليلة هادئة" قالتها استى ومرت من امامي ببيجامة الافيال الصيفية وحذاء امها المنزلي الكبير وبقيت رائحة شعرها المبلل.
"ليلة سعيدة يا ابي".
وقالت وهي في الممر خارج الحجرة:
"حسنا. اذن فليكن في حجرتي. لا فرق عندي".

* * *

من رأى ذات مرة حجرة فتاة في ساعة متأخرة بالليل وقبل النوم مباشرة عندما يكون النور الوحيد المضاء فيها هو نور مصباح القراءة الموجود بجوار سريرها؟

اذن، في حجرة الفتاة ايضا حوائط ونوافذ وارضية وسقف واثاث وباب. لا جدال. ومع ذلك كأنما نصل الى دولة مختلفة تماما، دولة غريبة بها مواطنون لا يشبهوننا في اي شيء. فمثلا لا يوجد خراطيش بندقية او مسدس على عارضة الشباك. ولا يوجد حذاء رياضي ملوث بالوحل عميقا تحت السرير. ولا توجد

اكوام من الحبال والحديد والحوافر والكتب المغبرة ولا مفرقعات من عيد البوريم الماضي. ولا اقفال قديمة وقطع مطاطية في كل ناحية من الحجرة ولا يوجد عجلات ذات اسنان او اسلاك كهربائية ولا يوجد بنانير ولا "بلابل" ولا افلام. ولا يوجد منشورات قديمة للحركة السرية مخبأة بين الدولاب والحائط ويبدو انه لا توجد صور فاحشة مخفاة بين صفحات كتاب معالم البلاد. ولا يوجد ولا يعقل ان يوجد في حجرة الفتاة جمجمة قط ولا علب بيرة فارغة مصنوعة من الصفيح ومفكات ومسامير ولا زنبركات ساعات مفككة ولا اربطة او عقارب. ولا شفرات مطاوى ولا رسومات لسفن حرب مشتعلة على طول الحائط.

بالعكس.

في حجرة استي كان للضوء نفسه ما يشبه اللون: ضوء دافيء بني ضارب الى الحمرة بسبب ظلة من الالياف الحمراء كانت تغطي مصباح الليل. لقد كان الشباكان مغطيين بالستائر الزرقاء التي رأيتها الف مرة من الخارج، ولم اصدق انني سأراها من الداخل طيلة حياتي. على ارضية الحجرة كانت حصيرة صغيرة مصنوعة من القش المجدول وكان هناك دولاب ابيض له ادراج بنية، في الفراغ الكائن بين هذا الدولاب والحائط، كما في حفرة مليئة بالظلال، كان هناك مكتب صغير ومرتب إكتشفت عليه كراسات استي واقلامها والوانها المائية. وكان هناك سرير منخفض معد للنوم بين الشباكين في مقدمته سجادة مطوية لونها احمر خمري. (اما السرير الثاني الذي يطوي فقط ادخل هنا تكريما لي وقد اوقف بالقرب من باب الحجرة بقدر الامكان). وكان هناك كرسي بلا متكأ في احدى الزوايا وعليه فوطة صغيرة وقد تجاورت

عليه مزهرية عالية تصاعدت منها افرع الصنوبر ولقلق مركب من كوز صنوبر واعواد ملونة. وكان في الحجرة كرسيان ولم ازح نظري تقريبا عن احدهما. ان مصباح الليل اضاء كل شيء بنور هادىء متوازن، بنور بني ضارب الى الحمرة.

ظننت انك موجود في حجرة فتاة، انك لدى استي، كما انك تجلس ولا تقول شيئا لانك غبي كبير. سومخي استنادا الى سومخي. ان هذا التفكير لم يساعدني في ايجاد كلمات مناسبة لكي اجري حوارا. وبعد متاعب جمة نجحت في النهاية ان اقول هذه الجملة:

"ان حجرتي في المنزل مختلفة تماما. "

قالت استي:

"بالتأكيد. لكنك الان هنا ولست هناك".

قلت:" نعم "(لانها كانت الحقيقة).

سألت استي:" على اي شىء تنظر طول الوقت".

"لا انظر الى اي شيء محدد". قلت "انني جالس فقط و ... جالس ولم انظر الى اي شيء محدد".

(لقد كان هذا كذبا بالطبع. اذ انني لم ارفع عيني عن متكأ الكرسي الثاني الذي مد عليه الوشاح الابيض المحبوب، الوشاح الذي الصقته بالعلكة مرات عديدة الى كرسيها في الفصل.

فكرت في نفسي: يا الهي لماذا خلقت احمق هكذا ولماذا ولدت، ألم يكن من الافضل الا اكون موجودا الان. والا اكون في اي مكان. ربما فقط بين جبال الهمالايا او في بلاد اوبانجي شاري وهناك ايضا لا توجد حاجة لغبي مثلي).

وهكذا بعد ان انتهت الكلمات التي نجحت في تجميعها جلست في هدوء على السرير القابل للطي في حجرة استي وما زالت يدي اليمنى تتصبب عرقا وهي تطبق على المبراة داخل الجيب.

قالت استي: "ربما تريد مع ذلك ان تنام في حجرة الضيوف؟"

همست:" غير مهم."

"ما هذا الذي تقصده على انه غير مهم؟"

"لا شيء، مجرد كلام. "

"حسنا، كما تريد. سأدخل الان الى السرير وسأتجه ناحية الحائط حتى تستطيع ان تعد نفسك في هذا الوقت." لكنني لم افكر ابدا في ان اعد نفسي ونمت تحت البطانية الرقيقة بملابسي، بنطلون الرياضة القصير وقميص الحشمونائيم، ولم اخلع الا حذاء الرياضة وقذفته بعيدا تحت السرير بقدر استطاعتي.

وقلت:

"هكذا. تمام ."

"اذا كنت تريد ان تخبرني عن ثورة المهدي القاسي في بلاد السودان كما رويتها لرعنانا ولنوريت وغيرهما حينما مرض شيطريت وكانت لدينا حصتا فراغ".

"لكنك حينها لم ترغبي في أن تسمعي ".

قالت استي وبصدق:" شتان ما بين الآن وحينئذ".

" اذا لم تسمعي هذه القصة فكيف عرفت ان هذه القصة عن ثورة المهدي في السودان؟"

"عرفت. وعموما انا اعرف كل شيء".

"كل شيء؟"

"كل شيء عنك. وحتى الشيء الذي تعتقد انني لا اعرفه".

"يوجد شيء لا تعرفينه ولن اخبرك به ابدا." قلتها بسرعة كبيرة وفي نفس واحد ووجهي للحائط وظهري ناحية أستي.

"انني اعرف "

"غير صحيح "

"نعم "

"لا "

"نعم "

"اخبريني ونرى. "

"لا "

"هذا دليل على أنك تقولين فقط انني اعرف. انت لا تعرفين شيئا. "

"اعرف حق المعرفة "

"اخبريني الان واقسم لك اذا كان هذا هو السر الصحيح سأخبرك بأنه هو السر الصحيح."

"لن تخبرني "

"اقسم انني سأخبرك. "

"حسنا الموضوع كالتالي: انك تحب بنتا ما في فصلنا."

"هراء.. ماذا دهاك".

"وكتبت عنها اشعار حب."

"مجنونة غير طبيعية. توقفي "

"في مذكرة سوداء "

قررت في هذه اللحظة ان اسرق محرارا من خزانة الدواء واكسره واخرج زئبق المحرار وخلال استراحة الساعة العاشرة اخلط بعضه بكاكاو الدو وبعضه بكاكاو جوئيل جرمنسقي فليموتا وايضا في كاكاو باركوخبا وطرازان بمبرجر فليموتوا جميعا مرة واحدة وللابد. عادت أستى وقالت:

"في مذكرة سوداء صغيرة، اشعار حب وبعض الاشعار عن كيفية هروبك مع هذه الفتاة في نهاية الصيف الى جبال الهمالايا ولاحدى بلاد افريقيا لكن نسيت اسمها."

"اغلقي فمك يا استي والا سأخنقك الان فورا. كفى."

"الم تعد تحبها؟"

"لكن هذا كذب يا استى ان كل هذا كذب وافتراء من قبل هؤلاء الحقيرين. انني لا احب اية فتاة".

"حسنا" قالت استي واطفأت فجأة مصباح الليل الكائن بجوار سريرها واضافت قائلة في الظلام:" كما تريد. سننام الان. وانا ايضا لا احبك."

وبعد ذلك عندما دخل نور فانوس الشارع على شكل خطوط الى الحجرة من ثقوب الشيش ورسم خطوطا على المنضدة وعلى الكراسي وعلى الدولاب وعلى ارضية الحجرة وعلى أستى التي جلست بالبيجامة المرسوم عليها افيال على طرف الحصيرة بجوار سريري، لقد تحدثنا قليلا في همس. لقد كشفت لها كل شيء تقريبا. من هو الخال تسيمح وكيف انني انا الذي اشبهه ولد مجنون ومن يدري لعلي سأصبح سمسارا في المستقبل.

كيف يمكن ان اقوم واترك كل شيء واذهب الى منابع نهر زامبيز في بلاد اوبانجي شاري.

كيف سأترك البيت واترك الحي واترك المدينة. وكيف نجحت في يوم واحد ان افقد دراجة وقطارا كهربائيا وكلبا بل وحتى بيت والدي. وكيف بقيت بلا شيء سوى المبراة التي وجدتها. لقد تحدثت مع أستي في همس حتى وقت متأخر ربما حتى الساعة الحادية عشرة ليلا تقريبا وكانت استي صامتة ومصغية. لكن بعد الهدوء الذي خيم علينا بعد ان انتهيت من الحديث قالت استي فجأة:

"حسنا اعطني الان هذه المبراة. "

"المبراة؟ لماذا تريدين المبراة؟"

"كده، اعطني "

"خذي، هل تحبينني؟"

"لا ولتصمت "

"اذن لماذا تلمسين ركبتي؟ "

"لعلك تصمت؟ انه مضطر دائما لان يتحدث ويحدث مشاكل. لا تتحدث اكثر".

قلت "تمام" ثم وجدت نفسي مضطرا الى ان اضيف :

"استي"

قالت استي :

"كفى ، لا تتحدث. الان سأذهب من هنا لكي انام على الاريكة الموجودة في حجرة الضيوف. كده، لا تقل اية كلمة. ولا تتحدث غدا. ليلة هادئة. وعموما لا يوجد في العالم مكان كهذا، بلاد اوبانجي شاري وجميل انك اخترعت لنا مكانا لكي نكون سويا الى اللقاء غدا.

*   *   *

لقد استمرت صداقتي مع استى لمدة ستة اسابيع. لقد كانت كل تلك الايام دافئة وزرقاء والليالي ايضا باتت زرقاء داكنة لقد كان الصيف في القدس عميقا ورحبا عندما تبادلنا الحب انا واستي. واستمر الحب حتى نهاية السنة الدراسية وبعدها بقليل في اجازة الصيف. ما اكثر الاسماء التي نادونا بها في الفصل وكم من القصص رووها عنا وكم من الدعابات التي اخترعوها عنا. لكن لم يهمنا شيء طيلة فترة حبنا، وبعد ذلك انتهت الصداقة وتفرقنا. انني لا اريد ان احكي هنا كيف تفرقنا وسبب ذلك ولماذا. الم اكتب في مقدمة هذه القصة ان الوقت يمر، وان كل شيء يتبدل في العالم. وفي الحقيقة، هذه نهاية قصتي، وفي الحقيقة استطيع ان اقصها في جملة واحدة: ذات مرة احضروا لي دراجة كهدية استبدلتها بقطار حصلت بدلا منه على كلب عثرت بدلا منه على مبراة. اعطيتها بمحبة.

وهذا ايضا ليس صحيحا وذلك لان الحب كان طيلة الوقت حتى قبل ان اعطي المبراة وقبل ان تبدأ التبادلات.

لماذا توقف الحب انه السؤال الذي اطرحه هنا. ومن الممكن ان اسأل اسئلة اخرى كثيرة: لماذا مرّ وتبدل ذلك الصيف؟ والصيف الذي تبعه؟ وصيف آخر وآخر؟ لماذا مرض المهندس عنبار؟ ولماذا يتبدل كل شيء في العالم؟ واذا كنا نعرض اسئلة، لماذا بعد ان كبرت الان ما زلت هنا وليس في جبال الهمالايا او في بلاد اوبانجي شاري؟ اذن يوجد كثير من الاسئلة وبينها اسئلة صعبة لكنني انهيت قصتي ومن توجد لديه اجابات فليقم ويقص علينا.

الخاتمة.

كل شيء على ما يرام:

من الممكن الا نقرأ هذا الفصل لانني كتبته اضطراريا.

في منتصف الليل وربما بعد منتصف الليل وصل ابي وامي وهما شاحبا الوجه ومذعوران الى بيت اسرة عنبار.

لقد بدأ ابي في البحث عني في التاسعة والنصف، فذهب في اول الامر ليسأل عني الخالة عدنا التي تسكن في حي يجيع كبيم وعاد بعد ذلك الى حينا وسأل عني لدى بركوخبا ولدى ايلي فينجرطن دون جدوى. ووصل الى منزل جرمنسقي في العاشرة والربع وعندما ايقظوا جوئيل وسألوه ادعى جوئيل انه لايعرف شيئا ساور الشك ابى واستجوب جوئيل استجوابا شاملا وقصيرا اقسم خلاله جوئيل عدة مرات وبخوف بأن الكلب كلبه ويوجد لديه تصريح من البلدية بامتلاك الكلب. وتركه ابي وهو يقول له: سنتحدث قليلا في فرصة اخرى واستمر في تمشيط بيوت الجيران. وفي منتصف الليل تقريبا عرف اخيرا من السيدة سوسكين انها شاهدتني جالسا على سلالم حانوت بقالة السيد بياليج وانا اكاد ابكي وبعد مرور نصف ساعة اطلت السيدة سوسكين مصادفة من خلف الشيش الشمالي لشقتها فرأتني ما زلت جالسا على السلالم وفجأة" ظهر السيد المهندس عنبار واخذ الولد معه لمكان ما وبكلمات جميلة ووعود".

* * *

قال ابي بوجه شديد البياض وصوت هادىء وخافت:

"ها هو جوهرتنا .. لقد نام الولد المجنون بملابسه. قم وارتد من فضلك

وشاحك الذي حملته امك من اجلك من بيت لبيت طيلة المساء وحتى منتصف الليل. سنذهب الان الى المنزل مباشرة وسننهي حساباتنا غدا. هيا".

اعتذر للمهندس عنبار وزوجته وشكرهما وطلب منهما ان يبلغا شكره في الغد لاستر الحبيبة (واثناء خروجنا رأيتها من بعيد، للحظة صغيرة جدا من خلال باب حجرة الضيوف المفتوح، تتقلب من جنب الى جنب وهي نائمة، بسبب الحديث والضوضاء، تتمتم بشيء ما، من المؤكد انها همست انها كانت السبب في كل شيء والا يعاقبوني ولم يسمع شخص سواي هذا الكلام . وحتى انا لم اسمعه).

نمت متيقظا ومشرقا وسعيدا في سريري الذي في المنزل طيلة هذه الليلة حتى نور الصباح، لم انم ولم توجد لديّ رغبة للنوم. رأيت كيف رحل القمر من شباكي وكيف كان شعاع النور الاول يلمع ناحية الشرق وظهرت بعد ذلك ظلال الجبال ثم ظهرت الجبال نفسها. وعندما بدأت الشمس توقد وميضها في مزاريب المياه وزجاج الشباك قلت بصوت مرتفع:

"صباح الخير يا استي".

فعلا لقد بدأ يوم جديد. وقال ابي لامي وهو بجوار منضدة وجبة الصباح:

" حسناً كما تريدين، فليكبر ويصبح يوتسمح انا مستعد لان اسكت".

قالت امي:

"اذا تكرمت، أسم اخي تسيمح وليس يوتسمح."

"حسنا، فليكن كذلك، من ناحيتي كل شيء على ما يرام. "

وفي الفصل في استراحة الساعة العاشرة ظهرت لوحة مكتوب عليها:" في منتصف الليل عندما تبزغ النجوم يتبادل استى و سومخي الحب."

اما المدرس السيد شيطريت فقد محا كل شيء بالمساحة وبدون غضب ناشد الفصل قائلا:" يجب الا تتقولوا على احد. هدوء يا بشر. "

وفي نفس اليوم ذهب ابي بمفرده الى منزل اسرة جرمنسقي اثناء عودته من عمله في الساعة الخامسة بعد الظهر. وضح واعتذر. ابدى رأيه بصراحة واستلم القطار الكهربائي واتجه في خطوات متوسطة لكنها قوية الى منزل اسرة قسطلناوبو وهناك اصطحبته المربية الارمنية لويزا الى المكتبة المعطرة وعبر عن رأيه للسيدة قسطلناوبو دون تحيز واعتذر لهم واعتذروا له واعطاهم القطار واخذ الدراجة.

وهكذا عاد كل شيء في النهاية الى مكانه بسلام.

حقا لقد اخذت الدراجة مني ووضعت في الدور الارضي لمدة ثلاثة اشهر.

لكنني كنت قد كتبت انه قد تغير كل شيء حتى نهاية الصيف ولم يحدث اي شيء كما حدث قبل ذلك وبدأت قضايا اخرى ربما كان مكانها في قصة اخرى.

يناير - فبراير ١٩٧٧ م

طبع في شركة الشرق الأوسط للطباعة ـ هاتف ٨٩٤٩٤١ ـ ص.ب ١٥٢٨٦